رحلة الحياة والموت

رفاعي العسيري

الإهداء

إلى كل إنسان حمل همًّا فصبر،
إلى من فقدوا أبناءً أو أحبة فاحتسبوا،
إلى أرواح عبرت أبواب الموت بسلام،
إلى من جعلوا من الابتلاء طريقًا للرضا.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللَّهُمَّ إنِّي أُشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنّك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك. وهذه الشهادة هي لي وديعة عندك، عند الموت، وعند السؤال في القبر، وعند الصراط، وعند الميزان.

اللَّهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

اللَّهُمَّ اغفر لي ذنوبي كلها؛ دقَّها وجلَّها، كبيرها وصغيرها.

اللَّهُمَّ اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، وتقبَّله يا أرحم الراحمين.

آمين

الحياة لا تتوقف عن الاختبارات، فمع نهاية كل اختبار تبدأ مواجهة اختبار آخر في مواد مختلفة.

الحياة امتحان متواصل، يواجه فيه الإنسان شتى صور البلاء والاختبار. يولد ضعيفًا، ثم يكبر بين آمال وآلام، ثم يذوق حلاوة الفرح ومرارة الفقد، حتى تنتهي رحلته بالموت.

لقد قضت حكمة الله أن يجعل الدنيا دار ابتلاء، يختبر فيها عباده بالنعم كما يختبرهم بالمحن، لينظر أَيَشْكرون أم يكفرون، أيَصبرون أم يجزعون. قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

وفي هذا الكتاب رحلة مع أعظم الابتلاءات التي عرفها البشر، منذ سيدنا آدم عليه السلام وحتى خاتم الأنبياء ﷺ، مرورًا بالأنبياء والرسل والصالحين والعلماء. نقرأ كيف صبروا، وكيف واجهوا المحن بثبات، وكيف كانت وفاتهم نفسها بابًا من أبواب الابتلاء العظيم.

وليس المقصد من هذه الصفحات مجرد السرد التاريخي، بل الغاية أن نتعلم كيف نعيش الحياة بوعي، وكيف نرى في كل محنة منحة، وفي كل ألم حكمة، حتى نلقى الله بقلوب راضية مطمئنة.

رفاعي العسيري

رحلة الحياة والموت

رفاعي العسيري

الفصل الأول: رحلة البدايات – ميلاد الإنسان بين النور والظلام

لم تكن الحياة يومًا مجرد مرور عابر فوق جسور الأيام، بل كانت دائمًا امتحانًا طويلًا، تتداخل فيه الأسئلة كما تتداخل خيوط الفجر في نسيج الليل. الإنسان يولد غريبًا، بين صرخة أولى وبسمة أولى، لا يعرف شيئًا عما ينتظره في هذا العالم، لكنه يدرك بحدسه أن الرحلة لن تكون سهلة.

كل بداية تحمل سرّ النهاية، وكل ميلاد يخبئ داخله موتًا مؤجلًا، وكل خطوة أولى تفتح أمامنا دروبًا لا نهائية. وهنا، تبدأ الحكاية...

الطفل والدهشة الأولى

تخيل طفلًا خرج لتوّه من رحم أمه. عيناه نصف مغمضتين، وأنفاسه متقطعة، وصوته الضعيف يعلن عن حضوره. لا يدري هذا الكائن الصغير أنه انتقل من عالمٍ ضيقٍ مظلمٍ إلى عالمٍ أوسع، مليءٍ بالأصوات والأنوار والوجوه. في تلك اللحظة، يختلط الخوف بالدهشة، وكأن القدر يقول له: "مرحبًا بك في الامتحان العظيم."

يكبر الطفل، وتكبر معه أسئلته. لماذا السماء زرقاء؟ لماذا البحر لا ينتهي؟ لماذا يموت الناس؟ هذه الأسئلة البسيطة، في ظاهرها، هي البذور الأولى للفلسفة، ومفتاح رحلة الإنسان نحو الفهم.

المدرسة الأولى

حين يدخل الصغير مدرسته الأولى، يجد نفسه في فصل مزدحم بالكلمات واللوحات والأصوات. يتعلم الحروف، فيدرك أن العالم له أسماء، وأن الأشياء تُحفظ وتُستدعى من خلال الرموز. يكتشف أن وراء كل كلمة معنى، ووراء كل معنى بابًا يفتح على أبواب أخرى.

لكن المدرسة ليست فقط مكانًا للتعلم، بل أيضًا أول ميدان للمنافسة والصراع. هناك من يتفوق، وهناك من يتأخر. هناك من يصفق له المعلم، وهناك من يتلقى اللوم. وفي قلب ذلك الطفل البريء، يولد إحساس جديد: إحساس بالعدل والظلم، بالنجاح والفشل.

أول امتحان حقيقي

يمر الإنسان دائمًا بمحطات صغيرة، لكنها تتراكم حتى تصبح خبرة. أول امتحان في المدرسة ليس مجرد ورقة وأسئلة، بل هو مواجهة مبكرة مع فكرة أن الحياة لا تمنحك دائمًا ما تريد، وأنك مطالب دائمًا بالإجابة، حتى وإن لم تكن تعرف الحل.

يسهر الطفل ليلًا مع والدته التي تراجع معه دروسه. يتوتر، يخاف، ثم يذهب في الصباح حاملاً حقيبته الثقيلة وقلبه المرتعش.

وعندما يُوزع المعلم أوراق الامتحان، يكتشف الطفل أن الأسئلة ليست كما توقع. هناك ما يعرفه جيدًا، وهناك ما يبدو غريبًا عليه.

هنا، تتجلى حقيقة الحياة: ليست كل الأسئلة سهلة، وليست كل الأسئلة صعبة. بعضها يمنحك الطمأنينة، وبعضها يزرع فيك الرعب، لكن عليك أن تواجهها جميعًا.

النتيجة والدرس الأول

حين تعلن النتيجة، يفرح البعض ويبكي البعض الآخر. والطفل، الذي نجح أو فشل، يبدأ في تكوين صورة عن نفسه: هل هو قوي أم ضعيف؟ هل هو ذكي أم محدود؟ لكن الحقيقة أن النتيجة ليست سوى لحظة عابرة، أما الدرس فهو الباقي: أن الإنسان لا يُقاس بورقة امتحان واحدة، بل برحلته الطويلة.

ومن هنا، يبدأ وعيه الأول بأن الحياة ليست سوى سلسلة من الامتحانات، وأن عليه أن يتعلم كيف يواجهها، وكيف ينهض بعد كل سقوط.

المراهقة... بداية العاصفة

إذا كانت الطفولة هي زمن الدهشة الأولى، فإن المراهقة هي زمن العاصفة الكبرى. فجأة، يكتشف الإنسان أن العالم لم يعد كما كان. جسده يتغير، أفكاره تتشوش، قلبه ينبض أسرع من أي وقت مضى، وأحلامه تتجاوز حدود البيت والمدرسة لتلامس السماء.

مرآة الذات

في تلك المرحلة، تصبح المرآة عدوًا وصديقًا في آن واحد. يقف المراهق أمامها طويلًا، يراقب ملامحه التي تتبدل يومًا بعد يوم. شعر ينبت حيث لم يكن، صوت يتغير، نظرات مختلفة. يسأل نفسه: من أنا؟ هل ما زلت ذلك الطفل الذي كان يلهو في الشارع؟ أم أنني شخص جديد لم يكتمل بعد؟

هذه الأسئلة ليست سطحية كما يظن البعض، بل هي بداية رحلة البحث عن الهوية. الإنسان، في جوهره، لا يكف عن سؤال "من أنا؟"، لكن في المراهقة يصبح السؤال أكثر إلحاحًا وأكثر إرباكًا.

صراع البيت والحرية

في البيت، ما زال يُعامَل كطفل: "لا تخرج"، "انتبه لدروسك"، "اجلس بهدوء". أما في داخله، فيصرخ: "أنا لم أعد طفلًا!" وهنا ينشأ أول صراع حقيقي مع العالم القريب. يريد أن يختبر الحرية، لكنه يخاف العقاب. يريد أن يجرّب الممنوع، لكنه يخشى الفضيحة.

كثيرًا ما تتكرر في هذه المرحلة مشاهد الجدال مع الأهل، الهروب أحيانًا، الصمت الطويل أحيانًا أخرى. وفي قلب هذا الصراع يتشكل درس جديد: أن الحرية لا تأتي بلا ثمن، وأن الاستقلال ليس مجرد رغبة، بل مسؤولية.

الصديق والمرآة الأخرى

لا يعيش المراهق وحده، بل يجد في أصدقائه مرآة جديدة لنفسه. يكتشف أن هناك من يشبهه في الأسئلة والتمرد، وهناك من يسبقه في التجربة. الصداقة هنا ليست مجرد لعب وضحك، بل هي تواطؤ غير معلن ضد العالم الكبير الذي يبدو ظالمًا ومقيدًا.

قد يقوده صديق إلى التدخين أو مغامرة متهورة، وقد يقوده آخر إلى كتاب يفتح عقله على عوالم لم يتخيلها. وهنا، يصبح الأصدقاء أحيانًا أشد تأثيرًا من الأهل والمعلمين.

الحب الأول

ثم يأتي الامتحان الأخطر: الحب الأول. قد يكون مجرد نظرة عابرة في فناء المدرسة، أو رسالة صغيرة تُخبأ في دفتر، أو حتى أحلام يقظة طويلة لا تنتهي. لكن تأثيره عظيم. يشعر المراهق أنه اكتشف سرًّا لم يعرفه أحد قبله، وأن قلبه يملك جناحين يمكنهما أن يحلقا فوق كل القيود.

لكن هذا الحب غالبًا ما ينكسر سريعًا أمام جدار الواقع: اختلاف الظروف، رفض الأهل، أو حتى اكتشاف أن الطرف الآخر لا يبادله الشعور. فيبكي المراهق بحرقة، ويظن أن الدنيا انتهت، لكنه لا يدرك أن هذا مجرد تدريب أول على امتحانات القلب القادمة.

أول مواجهة مع الفشل

إلى جانب الحب، يواجه المراهق امتحانات جديدة: رسوب في مادة، خسارة في مباراة، خيبة في مسابقة كان يظن أنه سيفوز بها. هنا، يتعلم درسًا أصعب: أن الفشل ليس نهاية العالم، لكنه جرح لا يلتئم بسهولة.

يصرخ البعض في وجهه: "شد حيلك!"، "أنت كسول!"، بينما في داخله يشعر أنه لم يعد كافيًا. ومع ذلك، يبدأ تدريجيًا في اكتشاف سرّ البقاء: أن يسقط، ثم يقف من جديد.

المراهقة كبوابة الحياة

بهذا الشكل، تصبح المراهقة بوابة عبور. هي ليست مجرد سنوات من الفوضى، بل معبر إجباري لا بد أن يمر به كل إنسان. من خلاله، يختبر لأول مرة معنى الهوية، الحرية، الحب، الفشل، والصراع مع العالم.

وهكذا، يخرج من هذه المرحلة أكثر وعيًا، أكثر ألمًا، لكنه أيضًا أكثر استعدادًا للامتحانات القادمة، التي ستكون أوسع وأقسى.

إذا كانت الطفولة دهشة، والمراهقة عاصفة، فإن الشباب هو زمن القرار. هنا، يصبح الإنسان كالسائر على مفترق طرق؛ كل خطوة يخطوها تفتح له بابًا وتغلق آخر.

الجامعة: عالم جديد

يدخل الشاب إلى الجامعة وهو يحمل حقيبة أثقل من حقيبة المدرسة، لكنها ممتلئة هذه المرة بالأسئلة أكثر من الكتب. يجد نفسه في فضاء أوسع: محاضرات، مدرجات، أصدقاء جدد من مدن وقرى لم يسمع بها من قبل.

هنا، يكتشف أن العالم ليس بيتًا واحدًا ولا مدرسة واحدة. هناك تنوع مذهل في الأفكار والعادات والأحلام. يجد من يدافع عن الحرية بلا حدود، ومن يلتزم بالصمت والطقوس، ومن يعيش فقط للحظة دون حساب الغد.

في هذا الخليط، يبدأ الشاب في اختبار نفسه: هل ينحاز إلى طريق المعرفة الجادة، أم ينجرف وراء اللهو والسطحية؟ وهنا يظهر أول امتحان للشخصية: الامتحان بين الالتزام والضياع.

الصداقة الناضجة

في الجامعة، تتغير ملامح الصداقة. لم تعد مجرد لعبة كرة في الشارع، ولا جلسة سمر على الرصيف. بل أصبحت علاقة تقوم على المشاركة الفكرية والوجدانية. يلتقي الشاب بمن يشبهه في الطموح، أو بمن يختلف عنه كليًا لكنه يجذبه بفرادته.

وهنا، يتعلم درسًا مهمًا: أن الصديق الحقيقي ليس من يرافقك دائمًا في الضحك، بل من يقف معك في اللحظات التي يتخلى فيها الآخرون.

الحب العميق

في مرحلة الشباب، يعود الحب من جديد، لكنه هذه المرة أعمق وأكثر جدية. لم يعد مجرد نظرات خجولة في فناء المدرسة، بل أصبح مشروعًا للحياة. يبدأ الشاب في التفكير: هل هذه الفتاة تصلح أن تكون رفيقة دربي؟ هل هذا الشاب يمكن أن يكون سندًا في المستقبل؟

لكن الحب هنا يواجه تحديات أعظم: اختلاف الطبقات، ضيق الإمكانيات، خوف الأهل، قسوة الظروف. وهنا يظهر الامتحان الأخلاقي: هل يتمسك الإنسان بمشاعره حتى النهاية؟ أم يرضخ لضغوط الواقع؟

العمل الأول
إلى جانب الجامعة، أو بعدها مباشرة، يبدأ الشاب في مواجهة عالم العمل. وهنا، يدخل لأول مرة في امتحان مختلف كليًا. لم يعد هناك معلم يضع الدرجات، بل مدير يضع الشروط. لم يعد النجاح يقاس بدرجة مكتوبة على ورقة، بل بقدرتك على الإنجاز وسط منافسة شرسة.
قد يبدأ بعمل صغير: موظف بسيط، عامل يومي، أو حتى متدرب بلا أجر. لكنه يدرك سريعًا أن هذا العمل، مهما كان متواضعًا، هو أول درس في قيمة الكفاح. يكتشف أن المال لا يسقط من السماء، وأن كل لقمة عيش وراءها جهد وعرق.
الامتحان بين الطموح والواقع
كثيرًا ما يصطدم الشاب بين ما حلم به في طفولته وما يفرضه الواقع. كان يتمنى أن يكون طبيبًا أو كاتبًا أو مخترعًا، لكنه يجد نفسه موظفًا في مكتب صغير أو بائعًا في متجر. وهنا، يشتعل داخله السؤال: هل أقبل بما هو متاح؟ أم أتمرد وأسعى وراء حلمي مهما كلفني؟
البعض يختار الاستسلام والرضا، والبعض الآخر يقرر أن يقاتل من أجل ما يريد، حتى وإن تأخر الوصول.
الطريق إلى المسؤولية
وفي خضم هذه التجارب، يبدأ الإنسان في اكتشاف معنى جديد: المسؤولية. لم يعد يعيش لنفسه فقط، بل لأسرته التي تنتظر نجاحه، ولمستقبله الذي يتشكل ببطء، ولأحلامه التي لا بد أن يحملها على كتفيه وحده.
الشباب هو مرحلة التأسيس. كل قرار يتخذه في هذه السنوات سيؤثر على ما يأتي بعدها. كاختيار التخصص، اختيار الشريك، اختيار الطريق الذي سيسلكه. وكأنها لوحة كبيرة، كل ضربة فيها تحدد ملامح الصورة النهائية.
بعد أن يعبر الإنسان بوابة الشباب، يدخل مرحلة النضج. لم يعد مجرد طالب يبحث عن هوية، ولا شابًا يركض وراء الأحلام. الآن، أصبح مطالبًا بتحمل أعباء أثقل: بيت يُبنى، أسرة تنتظر، ومسؤوليات تتضاعف.
الزواج... بداية جديدة
الزواج ليس مجرد احتفال صاخب أو كلمات تُتلى في عقد رسمي، بل هو امتحان معقد يبدأ منذ اللحظة الأولى. يكتشف الإنسان أن الحب وحده لا يكفي، وأن الحياة المشتركة تحتاج إلى صبر، وتنازل، وتفاهم.
كل بيت جديد يمر بلحظات صعبة: خلاف على التفاصيل الصغيرة، اختلاف في الطباع، ضغوط الأهل، قلة المال. لكن وسط هذه التحديات، يتعلم الزوجان معنى الشراكة: أن يقفا معًا ضد مشاكل الحياة، لا أن يتحولا إلى خصمين يتقاتلان داخل جدران البيت.
الأبوة والأمومة
ثم تأتي اللحظة الأعظم: ميلاد طفل جديد. عندما يسمع الأب صرخة طفله الأولى، أو ترى الأم وجه وليدها، يدركان أن حياتهما قد تغيرت للأبد. لم يعودا مسؤولين فقط عن نفسيهما، بل عن كائن ضعيف يعتمد عليهما في كل شيء.
هنا، يبدأ درس جديد: أن الحب الحقيقي ليس في الكلمات، بل في السهر الطويل بجانب مريض صغير، وفي التضحية بالراحة من أجل تربية طفل يحتاج إلى كل رعاية.
ضغوط المعيشة
مع اتساع الأسرة، تتسع دائرة المسؤوليات. الفواتير، الإيجار، مصاريف المدارس، متطلبات الصحة، وأحلام الأبناء. هنا، يدخل الإنسان فى سباق زمني مع الحياة
يستيقظ باكرًا ليذهب إلى عمله، يعود متعبًا، لكنه يبتسم وهو يرى أسرته. ومع ذلك، يتسلل إليه سؤال مرير: هل هذا ما كنت أحلم به؟ هل حياتي مجرد دوامة من العمل والإنفاق والواجبات؟
لكن الجواب الحقيقي يكمن في لحظة صادقة: عندما يرى ثمرة جهده في نجاح ابنه، أو يسمع كلمة "شكراً" من قلب زوجته، يدرك أن تعبه لم يذهب سدى.
الصراع بين الطموح والواجب
في هذه المرحلة، يتجلى امتحان جديد: كيف يوازن الإنسان بين أحلامه الخاصة وبين واجباته تجاه أسرته؟ البعض يختار أن يدفن طموحاته ليكرّس حياته لأبنائه. والبعض الآخر يحاول أن يجمع بين الاثنين، فينهك نفسه لكنه لا يتنازل.
وهنا، يكتشف الإنسان أن النضج لا يعني التخلي عن الأحلام، بل يعني إعادة ترتيبها وتقديم ما هو أهم في وقته المناسب.
خسارات لا بد منها
الحياة في هذه المرحلة لا تخلو من خسارات: فقدان صديق عزيز، موت قريب، فشل مشروع، أو مرض مفاجئ. هذه الضربات تُسقط الإنسان أرضًا، لكنها في الوقت نفسه تعلمه الصبر والصلابة.
يكتشف أن كل خسارة تفتح داخله مساحة جديدة للفهم، وأن الألم جزء أساسي من عملية النضج.
النضج كمعنى
النضج لا يقاس بالعمر وحده، بل بقدرة الإنسان على أن يكون مسؤولًا. أن يتخذ قرارات صعبة، أن يصمد في وجه الأزمات، أن يضع الآخرين قبله أحيانًا. هو امتحان لا يمر به الجميع بنفس النجاح، لكنه يظل علامة فارقة في رحلة الحياة.

الإنسان كائن يراوح دائمًا بين يقظتين؛ يقظة الحياة ويقظة الموت. في كل صباح، حين يفتح عينيه على ضوء النهار، يظن أن يومًا جديدًا قد بدأ، غير مدرك أن استيقاظه نفسه نعمة كبرى وبعث صغير من رقادٍ يشبه الفناء. وفي كل مساء، حين يثقل جفناه بالنوم، يدخل عالمًا آخر ينسلّ فيه وعيه من بين أصابعه، فيغيب عن الدنيا وكأنه مات، ليذوق طعم الرحيل دون أن يغادر تمامًا. ولهذا جاء القرآن ليصوّر هذه الحقيقة في آية جامعة، فقال تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: 42).

إنها لحظة دقيقة، تتكرر كل ليلة، لكنها تمرّ على أغلب الناس بلا تأمل. حين يغيب العقل في النوم، تظل الروح في يد خالقها، يقرر سبحانه أن يعيدها إلى الجسد في الصباح، أو يمسكها عنده فلا تعود. ما أعمقها من حقيقة وما أعظمها من آية! فالنوم ليس مجرد راحة للجسد، بل تجربة يومية مع الموت، يذكّر الإنسان أنه ميت في أي لحظة، وأن حياته ليست مضمونة حتى يستيقظ.

وليس العمر في مجمله إلا انعكاسًا لهذه الدورة. يولد الإنسان ضعيفًا هشًّا، يعتمد على غيره في طعامه وشرابه وحمايته، لا يملك من أمره شيئًا. ثم يشتد عوده، فيقوى عقله وجسده، ويبلغ أشدّه، ويظن أنه قادر على حمل الأعباء وقيادة مصيره. غير أن هذه القوة سرعان ما تتلاشى، فيعود مرة أخرى إلى الضعف والإنهاك، ليكتشف أن العمر ليس خطًّا صاعدًا إلى ما لا نهاية، بل هو موجة تبدأ بضعف، ثم تبلغ قمة، ثم تهبط إلى ضعف آخر. وقد لخص القرآن هذا المشهد في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم: 54).

إنها لوحة عجيبة: طفل يصرخ في مهده عاجزًا عن الكلام والحركة، ثم شاب يقف بكبرياء في ميدان الحياة يظن أنه قادر على تحدي الدنيا كلها، ثم شيخ يتوكأ على عصاه، يئنّ من كل حركة، وتغشاه الغربة في جسده وروحه. وما بين هذه الأطوار جميعًا، تتجلى قدرة الله على تحويل الإنسان من حال إلى حال، ليدرك أن قوته ليست منه، وأن ضعفه ليس عجزًا ذاتيًا فقط، بل سنّة من سنن الوجود.

وليس كل إنسان يُمهل ليشهد هذه المراحل كلها. فمنهم من تُقبض روحه في ريعان الشباب، وقد بلغ أوج قوته، فيمضي تاركًا حسرة في قلوب أحبته. ومنهم من يُعمَّر طويلًا حتى يرد إلى أرذل العمر، حيث يفقد ذاكرته ومعارفه، ويصبح أسير النسيان وضعف الجسد. عندها يتبدد مجده وعلمه، ويصير كما بدأ: عاجزًا، لا يعلم من بعد علم شيئًا. وقد وصف القرآن هذا المشهد الدقيق ببلاغة حين قال تعالى:

﴿والله خلقكم ثم يتوفكم وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل: 70).

تأمل هذه الصورة: عالم جليل عاش حياته بين الكتب والأقلام، تُمحى ذاكرته شيئًا فشيئًا حتى لا يعرف ابنه الذي يجلس بجواره. رجل حمل الأثقال بيديه القويتين، فإذا به يرتجف حين يحمل كوب ماء. امرأة ملأت البيت صخبًا وحركة، فإذا بها تجلس في زاوية صامتة لا تدرك إن كان اليوم صباحًا أو مساء. هذا هو أرذل العمر، حيث يُختبر الإنسان في ذاته، في وعيه، في كرامته، في قوته التي كانت يومًا ما زهوه.

الضعف إذن ليس عيبًا في الخلق، بل هو رسالة متكررة تطرق أبواب القلب. إن الطفل الضعيف يذكرك بأصلك، والشاب القوي يذكرك بزهوك، والشيخ العاجز يذكرك بمآلك. وما بين الميلاد والموت، وبين النوم واليقظة، يظل الإنسان في رحلة متكررة، يتأرجح فيها بين القوة والضعف، بين العلم والجهل، بين الإدراك والنسيان.

إن هذه الرحلة، لو تأملها المرء بصدق، لعلم أن عمره ليس ملكًا له، وأن قوته ليست دائمة، وأن علمه معرض للزوال. لعلم أن الحياة لا تساوي شيئًا إن لم يكن لها معنى يتجاوز حدود الجسد. إنك لست مجرد كائن يولد ليكبر، ثم يشيخ ليموت، بل أنت كائن يُختبر في كل مرحلة، في نومك وصحوك، في قوتك وضعفك، في علمك وجهلك، لتدرك أن الغاية أعمق من البقاء، وأن المعنى أبعد من حدود اللحظة.

ولذلك، فإن من يظن أن قوته ستحميه من الفناء، أو أن علمه سيقيه من النسيان، لم يتأمل في المرآة جيدًا. فالموت يطرق أبواب القوي والضعيف على حد سواء، والنسيان يزحف على عقل العالم كما يزحف على عقل الأمي. وحدها الرحلة بما تحمله من دروس هي التي تبقى، لتذكّر الإنسان أن وراء هذا الوجود سرًا أعظم مما يراه.

وهكذا، يظل الإنسان في رحلة قصيرة تتقلب بين أطوار لا يملك زمامها، حتى يدرك أن كل يوم يعيشه إنما هو هبة جديدة، وأن كل نفس يتردد في صدره إنما هو أمانة مودَعة عنده، سيأتي يوم يُسلبها فيه. وحين يعي هذه الحقيقة، يشرع قلبه في طرح السؤال الأعمق: ما الغاية من هذه الرحلة؟ وما السر في أن يبدأ الإنسان ضعيفًا ويعود ضعيفًا؟

إنها ليست دورة عبثية، بل رسالة كبرى تفتح أبواب التفكير، وتدفع العقل للبحث عن الغاية والمعنى.

الفصل الثاني الغاية من الوجود: رحلة التوحيد

منذ أن فتح الإنسان عينيه على هذه الدنيا، وهو يواجه سؤالًا لا يفارقه: لماذا أنا هنا؟
ليس السؤال عن الطعام الذي يأكله، ولا عن الطريق الذي يسلكه، بل عن أصل وجوده نفسه. فمنذ اللحظة التي يتأمل فيها السماء بنجومها، أو يضع يده على صدره فيسمع نبض قلبه، أو ينظر إلى وجه طفل يولد أمامه، يتردد في داخله صوت خفي يقول: ما الغاية؟ ولماذا خُلقنا؟

الجواب الحق لم يكن يومًا متشعبًا ولا معقدًا، بل جاء واضحًا في وحي الله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

هذه الآية تختصر رحلة الوجود كلها. لم يُخلق الإنسان ليعيش عبثًا، ولم يُترك سُدى، بل جُعلت حياته كلها مرتبطة بالعبادة. والعبادة ليست مجرد ركعات أو طقوس تؤدى، بل هي معنى أوسع وأشمل: أن يعيش الإنسان لله وحده، أن يعرفه ويطيعه، أن يملأ قلبه إيمانًا ويقينًا، وأن تكون أعماله كلها شهادة على إخلاصه لربه.

التوحيد غاية الغايات

التوحيد هو سر الوجود كله. أن تقول بقلبك ولسانك وعملك: لا إله إلا الله.
بهذا الإعلان البسيط يحرر الإنسان نفسه من كل قيد.
فمن لم يوحّد الله، عبد غيره دون أن يشعر؛ عبد المال أو الجاه أو الشهوة أو البشر. أما الموحد، فهو وحده الذي يعيش حرًّا بحق، لأنه لا يرى في هذا الكون سيدًا ولا ربًا ولا مدبرًا إلا الله الواحد القهار.

ولذلك جاء القرآن يكرر دعوة التوحيد في كل موضع:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1–4).

هذه السورة الصغيرة في كلماتها، العظيمة في معناها، تُلخص رسالة الوجود كله. فهي تثبت وحدانية الله، وتنفي عنه أي شريك أو مثيل، وتؤكد أنه الغني عن العالمين، وأن كل شيء محتاج إليه.

الوجود دار اختبار

لكن لماذا هذه الرحلة إذن؟ لماذا يولد الإنسان ضعيفًا، ثم يقوى، ثم يضعف من جديد، ثم يموت؟
لأن الدنيا ليست مقامًا أبديًا، بل هي دار اختبار. قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: 2).

فالحياة ليست هدفًا بذاتها، بل وسيلة للاختبار. يمتحن الله عباده بالخير والشر، بالقوة والضعف، بالغنى والفقر، ليرى صدق إيمانهم وتوحيدهم. فمنهم من يثبت، ومنهم من يزيغ قلبه. وهنا تتضح الحكمة من رحلة الضعف والقوة والشيخوخة والموت: كلها محطات في امتحان واحد عنوانه "العبودية لله".

الطمأنينة في التوحيد

من يفتش عن المعنى بعيدًا عن التوحيد يظل قلقًا، مضطربًا، تائهًا بين الأفكار والمذاهب.
قد يجد متعة عابرة في المال أو الشهرة أو السلطة، لكنه سرعان ما يكتشف فراغًا في داخله لا يملؤه شيء. وحده الموحد الذي يضع رأسه على وسادته مطمئنًا، لأنه يعرف أنه عبد لله، وأن حياته كلها بيده، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28).

فالطمأنينة ليست في كثرة المال ولا في علو المنصب، بل في صدق التوحيد وذكر الله.
هكذا يتضح أن الغاية من الوجود ليست لغزًا معقدًا، ولا سرًا مستحيلًا. إنها كلمة واحدة تختصر كل شيء: التوحيد. أن يعيش الإنسان عبدًا لله وحده، وأن يدرك أن عمره القصير إنما هو أمانة وامتحان، وأن نهايته ليست فناءً مطلقًا، بل بداية لحياة أبدية يُجازى فيها على عمله.

حين يتأمل الإنسان مسار حياته، يكتشف أن كل لحظة تمر ليست عابرة، بل هي محطة اختبار. من أصعب الابتلاءات ما يمر به الإنسان في قلبه قبل جسده، حين يواجه فقد الحبيب أو فراق الصديق أو فقدان الأمان. هذه اللحظات القاسية ليست سوى امتحانات تضعه أمام سؤال التوحيد: هل سيبقى مخلصًا لعبوديته لله أم سينحرف قلبه إلى الشكوى والغضب والاعتماد على غير الله؟

لقد مرت الأجيال كلها بهذه الاختبارات. الصحابة رضوان الله عليهم عاشوا حياة مليئة بالشدائد، لكنها كانت وسيلتهم لتثبيت التوحيد في قلبهم، ليعلموا أن كل ما لديهم من قوة وعلم ونجاح ليس ملكًا لهم، بل أمانة وابتلاء من الله. حتى الرسل عليهم السلام، الذين اختارهم الله لهداية البشر، لم يسلموا من الابتلاء، فقد اختبروا الصبر، والثبات، والتحمل، والاعتماد الكامل على الله وحده.

الابتلاء ليس عقابًا بقدر ما هو وسيلة للارتقاء بالروح. حين يفقد الإنسان مالًا أو جاهًا، حين يمرض جسده أو يختبر فقدان من يحب، يكتشف أن التعلق بالدنيا هو سبب ألم الإنسان، وأن التعلق بالله وحده هو منبع الطمأنينة الحقيقية.

دروس من حياة الأنبياء

فالأنبياء، على سبيل المثال، عاشوا حياة مليئة بالمحن، لكنها مليئة بالعبر أيضًا. موسى عليه السلام، حين واجه فرعون وجنوده، لم يتعالى أو ييأس، بل لجأ إلى الله في كل خطوة، ووجد في التوحيد القوة على مواجهة المستحيل. يوسف عليه السلام، حين تم خيانته وسُجن ظلّ على توحيده، ولم يدع اليأس يقتحم قلبه، حتى جاءه النصر والعدل ببركة الله ورضاه.

وفي هذه القصة وغيرها، تظهر الحكمة العميقة للابتلاء: ليس الغرض من الابتلاء إلحاق الضرر بالإنسان، بل اختبار صدقه في التوحيد وصبره على المحن.

التوحيد كمنهاج للطمأنينة

الإنسان المؤمن يجد في التوحيد منهجًا يوجه حياته كلها. حين يعرف أن الله محيط بكل شيء، يعلم أن ابتلاءه ليس عبثًا، بل هو جزء من حكمة أكبر، وأن الله لا يبتلي إلا من أجل الخير، وإن بدا الألم في لحظته شديدًا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 155).

الصبر هنا ليس مجرد تحمل، بل هو الثبات على التوحيد، وعدم اللجوء إلى الشكوى من قدر الله، بل الاعتراف بأن كل شيء مقدّر بحكمة، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا.

الموت جزء من الاختبار

ولا يكتمل الحديث عن الاختبار إلا بالحديث عن الموت. الموت ليس نهاية الوجود، بل مرحلة جديدة في رحلة الإنسان. حين يموت الأب أو الابن، حين يفقد الإنسان عزيزًا عليه، يختبر قلبه: هل سيستسلم للحزن المفرط ويشغله عن طاعة الله، أم سيصبر ويتذكر أن الحياة دار فناء، وأن الله أرحم الراحمين؟

القرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة في مواضع متعددة، منها قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35).

وإدراك هذه الحقيقة يجعل الإنسان يعيش حياته بوعي أكبر، فلا يفرط في الدنيا، ولا ينسى أن الغاية الحقيقية هي رضى الله وعبادته وحده.

التوحيد والابتلاء في حياة الصالحين

كما أن الصالحين عبر التاريخ لم يختبروا السعادة فقط، بل اختبروا الألم والفقدان والمحن العميقة. لكن ما ميزهم هو أن توحيدهم لله كان الدرع والحصن، فظلوا صامدين رغم كل الشدائد. هذا ما يميز الإنسان الموحد: أن قلبه ثابت على الحق، لا يزعزعه ما أصابه من فقد أو مرض أو ألم، لأنه يعلم أن كل شيء يحدث بقدر الله، وأن الله على كل شيء قدير.

التوحيد إذن ليس مجرد عقيدة نظرية، بل هو واقع عملي يختبره الإنسان في كل لحظة من حياته، في نومه ويقظته، في صحته ومرضه، في قوته وضعفه، في شبابه وشيخوخته، في رزقه وفقده، في حياته ومماته.

الإنسان يولد ضعيفًا، ويبدأ منذ اللحظة الأولى رحلة اختبار مستمرة بين الميلاد والموت. كل ألم، فقد، تحدٍّ، أو أزمة يمر بها الإنسان، هو امتحان من الله لصدق التوحيد في قلبه وإخلاصه في العبادة.

التوحيد في القرآن الكريم
التوحيد هو أساس العقيدة الإسلامية، وقد وردت آيات كثيرة تؤكد على وحدانية الله:
﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: 2)
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5)
هذه الآيات تؤكد أن العبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده، وأن التوحيد هو أساس الدين القويم.

الابتلاء في القرآن الكريم

الابتلاء هو سنة من سنن الله في خلقه، وقد وردت عدة آيات تبين حكمته:
﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35)

**﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: 124)
هذه الآيات توضح أن الابتلاء يكون بالخير أو الشر كوسيلة لاختبار الإيمان والاعتماد على الله.

العلاقة بين التوحيد والابتلاء
التوحيد والابتلاء مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فالابتلاء يختبر صدق التوحيد في القلب، والثبات على التوحيد يمنح القوة لمواجهة المصاعب.
الأنبياء عليهم السلام قدوة للمؤمنين في مواجهة الابتلاءات:

أيوب عليه السلام ابتُلي بفقد المال والأبناء والمرض، لكنه صبر وظل محتسبًا، فرفع الله عنه البلاء وأعاد له صحته وأهله.
يوسف عليه السلام ابتُلي بالفتنة ثم بالسجن، لكنه بقي ثابتًا على التوحيد، فأكرمه الله ورفع شأنه في مصر.

الصبر والرضا
الصبر والرضا بما قضى الله هما مفتاح الطمأنينة. قال الله تعالى:
﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (النحل: 127)
الصبر الحقيقي هو الثبات على التوحيد، والاعتماد على الله وحده، وتحويل الابتلاء إلى وسيلة للسمو الروحي.

الموت والابتلاء

الموت جزء من الابتلاء، وفقد الأحبة والأبناء اختبار للقلب. قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: 35)

الموحد يرى في كل فقد درسًا وفي كل ألم فرصة لتقوية الإيمان والاعتماد على الله وحده.
التوحيد والطمأنينة

الموحد يعيش الطمأنينة الحقيقية لأنه يعلم أن كل شيء بيد الله: صحته ومرضه، رزقه وفقده، شبابه وشيخوخته، حياته ومماته. قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28)
الذكر والتوكل على الله وحده يحقق السلام الداخلي، ويحوّل كل تجربة صعبة إلى فرصة للتقرب من الله، وكل ألم إلى وسيلة للسمو الروحي.

التوحيد هو أساس الحياة، والابتلاء سنة من سنن الله. بالصبر والرضا والاعتماد على الله، يتحول الابتلاء إلى فرصة لتقوية القلب، ورفع الدرجات، وتأكيد صدق التوحيد في كل موقف من مواقف الحياة.
الابتلاء بالموت وفقد الأحبة

الموت جزء من سنن الله في خلقه، وفقد الأحبة والأبناء من أشد الابتلاءات التي يواجهها الإنسان. القرآن الكريم يذكر هذا النوع من الابتلاء في مواضع متعددة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: 35)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 200)
الموت وفقد الأحبة هو امتحان لقوة التوحيد، وسبيل لتذكير الإنسان بمرور الدنيا وفناء حياتها، والاعتماد على الله وحده.

قصص الصحابة في الابتلاء بالموت

سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد أحباءه في معارك بدر وأحد، ومع ذلك ظل ثابتًا على التوحيد، محتسبًا رضوان الله.

سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد إخوة وأقارب في الحروب والمحن، ومع ذلك استمر في نصرة الحق والعدل، محافظًا على إيمانه وتوحيده.

الابتلاء في حياة التابعين

التابعون أيضًا واجهوا فقد الأحبة والأبناء:

الإمام الشافعي رحمه الله فقد والديه صغيرًا، وعانى من الحزن والأسى، لكنه صبر على البلاء، وظل يطلب العلم ويثبت على التوحيد.

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ابتلي بالسجن والتعذيب وفقد بعض أحبائه، لكنه حافظ على إيمانه، وصبر على الابتلاءات حتى رفع الله قدره ومكانته.

الصبر والاحتساب

الصبر على فقد الأحبة يرفع الدرجات ويقرب العبد من الله:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من وَصَبٍ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حتى الشوكة يُشَاكُهَا إلا كفَّر الله بها خطاياه» (رواه البخاري ومسلم)

قال الله تعالى:
﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالو إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 156)

بهذه الآية، يتذكر المؤمن أن كل ما يحدث هو بقدر الله، وأن الفقد والابتلاء وسيلة لتزكية النفس وتقوية الصبر.

الابتلاء في الموت الشخصي

الموت نفسه ابتلاء للإنسان، فهو اختبار للصبر، ودرس في التوكل على الله، وتأكيد على أن الدنيا دار مؤقتة:

قال تعالى:
﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (الروم: 54)

هذه الآية توضح أن الله يخلق الإنسان في مراحل مختلفة، كل مرحلة فيها امتحان، والموت أحد هذه الاختبارات الكبرى.

ابتلاء الموت وفقد الأحبة والأبناء جزء من رحلة الإنسان في الحياة، وهو فرصة للتقرب إلى الله، وزيادة الصبر، والاعتماد على التوحيد. بالرضا بقضاء الله، والتمسك بالإيمان، يستطيع الإنسان أن يحوّل ألم الفقد إلى قوة روحية، ويثبت على توحيد الله، مع الإيمان بأن كل شيء بيده سبحانه وتعالى.
الابتلاء بالمال والرزق

المال رزق من الله، لكنه أيضًا نوع من الابتلاء: اختبار للصدق في التوحيد، والإخلاص في الإنفاق، والصبر على ما ينقص أو يُحرَم منه الإنسان. قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: 30)

الآية تشير إلى أن بعض البلاء قد يكون نتيجة لأفعال الإنسان، لكن الله يغفر ويعفو عن كثير من الخطايا، وهذا اختبار للثبات على التوحيد.

قصص الصحابة في ابتلاء المال

عبد الله بن عباس رضي الله عنه عاش فترات من الفقر، لكنه لم ييأس، وظل ثابتًا على طلب العلم وعبادة الله.

عمار بن ياسر رضي الله عنه ابتلي مع والديه بالمال والحرمان، لكنه صبر واحتسب، وظل مع المؤمنين ثابتًا على التوحيد.

الابتلاء في العمل والمهام اليومية

الحياة العملية مليئة بالابتلاءات: فقد الوظيفة، ضغوط العمل، الخلافات الاجتماعية، والمشكلات اليومية. هذه الابتلاءات ترفع أو تهبط بصبر الإنسان وإيمانه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من وَصَبٍ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أذًى وَلَا غَمٍّ حتى الشوكة يُشَاكُهَا إلا كفَّر الله بها خطاياه» (رواه البخاري ومسلم)

فالابتلاءات اليومية مهما صغرت، هي فرص لتكفير الذنوب، وتقوية الصبر، والتمسك بالتوحيد.

الابتلاء بالسلطة والمسؤولية

السلطة والمناصب أيضًا نوع من الابتلاء، لأنها تختبر مدى إخلاص الإنسان لله وعدم انغماسه في الغرور:

الصحابة الذين تولوا المناصب واجهوا ضغوطًا كبيرة، ولكن من ثبت قلبه على التوحيد، لم يفسد عليه البلاء ولم يتعدى حدود الله.

الهدف من الابتلاء في المال والعمل

الابتلاء في المال والعمل يحقق عدة أهداف:

1. تقوية الاعتماد على الله: الإنسان يتعلم أن رزقه بيد الله، وأن النجاح والفشل مقدر.

2. تطهير النفس: الصبر على الضيق والحرمان يرفع من درجات المؤمن ويكفر عنه ذنوبه.

3. تحقيق التوازن الروحي: الابتلاء يذكّر الإنسان بأن الحياة مؤقتة وأن المال والسلطة وسيلة لا غاية.

الابتلاء بالمال والرزق والعمل والسلطة هو فرصة للتقرب إلى الله، وتحقيق الإخلاص في العبادة، وصبر القلب، والتمسك بالتوحيد.
كل تجربة يومية مهما صغرت، إذا صبر عليها الإنسان واحتسبها عند الله، تصبح سببًا لرفع الدرجات وزيادة الطمأنينة الروحية.

لقد رأينا أن الابتلاء وسيلة لاختبار صدق الإيمان، وتأكيد الاعتماد على الله، وصقل الروح، ورفع الدرجات. قال تعالى:
﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35)
كما رأينا في الحديث الشريف عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:
«أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسبِ دينِه، فإن كان في دينِه صلابةٌ زيدَ في بلائه، وإن كان في دينِه رقةٌ خفِّفَ عنه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ»
(رواه الترمذي: 2398، حسن صحيح؛ وأحمد: 1494، وصححه الألباني: 78303)

الدروس المستفادة

1. الابتلاء سنة عامة: كل إنسان معرض للابتلاء، سواء بالمال، الصحة، فقد الأحبة، أو الشدائد اليومية.

2. الثبات على التوحيد أساس الصبر: من ثبت على توحيد الله صبر واحتسب، وثق أن كل شيء يحدث بقضاء الله وحكمته.

3. الموت وفقد الأحبة اختبار قوي: المسلم يرى في كل فقد درسًا، وفي كل ألم فرصة لتزكية النفس وتقوية الروح.

4. الابتلاء وسيلة لتكفير الذنوب ورفع الدرجات: كل مصيبة، مهما صغرت أو كبرت، هي فرصة للتقرب إلى الله.

الفصل الثاني أظهر لنا أن التوحيد والابتلاء وجهان لعملة واحدة: التوحيد يجعل الإنسان صبورًا ومطمئنًا، والابتلاء يختبر هذا التوحيد ويقويه.

بالاعتماد على الله وحده، والرضا بقضائه، والتحلي بالصبر، يتحول البلاء إلى وسيلة للسمو الروحي، وتزداد الطمأنينة في القلب، ويُعزز الإيمان بأن كل شيء بيد الله، وأن الحياة قصيرة والآخرة أبدية.

قال تعالى:
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

بهذا، يصبح الابتلاء وسيلة لتقوية التوحيد، وتزكية النفس، ورفع الدرجات، وطمأنة القلب في مواجهة كل ما تمر به حياة الإنسان من شدائد ومحن.

الفصل الثالث: الابتلاء اليومي – دروس من حياة البشر

الحياة اليومية لكل إنسان مليئة بالابتلاءات؛ منذ الاستيقاظ في الصباح وحتى آخر لحظة قبل النوم، يواجه الإنسان مواقف صعبة ومتنوعة. قد تكون هذه المواقف بسيطة، كضيق في الرزق، أو تأخر في الإنجاز، أو خلاف صغير مع أحد الأقارب أو الزملاء. وقد تكون أكبر، كفقد الأحبة أو ضغوط العمل والمسؤوليات الكبرى. هذه الابتلاءات، مهما صغرت أو كبرت، تحمل في طياتها دروسًا عظيمة في الصبر والتوكل والاعتماد على الله، وتذكيرًا دائمًا بأن الإنسان مهما بلغ من القوة، فإنه معرض للضعف والامتحان.

قال الله تعالى:
﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35)

فالابتلاء أمر يشمل كل البشر، من أكبر القادة إلى أضعف الناس، ومن الأغنياء إلى الفقراء، ومن الطلاب إلى العلماء. والاختلاف الوحيد بين الناس هو مدى الصبر والاحتساب والتمسك بالتوحيد.

الابتلاء المادي والعملي

الابتلاءات المادية والعملية تمثل جزءًا كبيرًا من تجربة الإنسان اليومية. المال رزق من الله، لكنه أيضًا اختبار. فقد تكون مبتلاءً للفقر، أو ضغوطًا مالية، أو فقدان وظيفة، أو استدانة، أو أي تحدٍ اقتصادي آخر.

الضغط المالي والفقر:
يواجه الكثير من الناس ضغوطًا مالية شديدة. الرزق قد يتأخر، والدخل قد لا يكفي لتغطية احتياجات الأسرة. الصبر في هذه الحالات ليس مجرد تحمل، بل هو تمسك بالرضا بقضاء الله، والاعتماد على الله في السعي والعمل.
قال الله تعالى:
﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: 30)
الآية تذكر الإنسان أن بعض الشدائد تأتي نتيجة أعماله، وبعضها ابتلاء لرفع الدرجات، والله يغفر ويعفو عن كثير من الخطايا لمن صبر واحتسب.

ضغوط العمل والمسؤوليات:
العمل اليومي، سواء في التجارة أو الوظيفة أو المهنة الحرة، يحمل معه ابتلاءات متنوعة. فقد تحدث نزاعات مع الزملاء، ضغوط لإتمام المهام في مواعيد ضيقة، ظلم من الآخرين، أو مسؤوليات تتجاوز القدرة الطبيعية للإنسان.
الابتلاء هنا يختبر قدرة الإنسان على التحكم بالنفس، وحسن التصرف، والتمسك بالتوكل على الله.

قصص من حياة التابعين والصالحين:

الإمام الشافعي رحمه الله عاش فترات طويلة من الفقر، لكنه لم ييأس وظل يجتهد في طلب العلم، محتسبًا الأجر عند الله، محافظًا على التوحيد في كل فعل.

عمار بن ياسر رضي الله عنه ابتلي بالحرمان المالي والاضطهاد، لكنه ظل ثابتًا على التوحيد والصبر، ولم يسمح لأي ابتلاء أن يغير إيمانه.

الابتلاء الروحي والنفسي

الابتلاءات اليومية ليست فقط مادية، بل روحية ونفسية أيضًا. كثير من الناس يواجهون صراعًا داخليًا بين الشهوات والرغبات والحق، بين الكسل والواجب، بين خوف الفشل وثقة النجاح.

ضعف الإيمان والكسل عن الطاعات:
الإنسان قد يمر بفترات ضعف روحي، ويشعر بعدم القدرة على الثبات على الصلاة أو ذكر الله. هذه الابتلاءات اختبار لإخلاص النية وصدق التوكل على الله.
قال رسول الله ﷺ:
«ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من وَصَبٍ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حتى الشوكة يُشَاكُهَا إلا كفَّر الله بها خطاياه» (رواه البخاري ومسلم)

الصراع بين الهوى والحق:
يواجه الإنسان أحيانًا صعوبة في اتخاذ القرارات الصحيحة، خاصة عندما تكون مغريات الدنيا قوية، أو عندما يتطلب الحق جهدًا وتضحية. هذه الابتلاءات تربّي الروح وتعلم الصبر والحكمة والتوكل على الله.

الابتلاء الاجتماعي

الإنسان ليس وحيدًا في هذه الحياة، والمجتمع له تحدياته:

الخلافات الأسرية: صعوبة التعامل مع الأهل، الأبناء، الزوج أو الزوجة.

المشاكل مع الجيران أو الزملاء: سوء تفاهم، حسد، أو ظلم.

الابتلاء في التعامل مع الآخرين يعلم الإنسان الصبر، واللين، وحسن الخلق، وهي صفة مطلوبة لتقوية الإيمان والتوحيد في الممارسة العملية.

دروس من حياة الصالحين

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ابتلي بالسجن والتعذيب، لكنه صبر واحتسب، ورفض التنازل عن الحق، محافظًا على توحيد الله حتى في أصعب الظروف.

الحسن البصري رحمه الله: واجه الفقر والشدائد، لكنه ظل متوكلًا على الله، معتمدًا على الذكر والصبر، محافظًا على قلبه متجهًا نحو الله.

هذه الأمثلة تذكرنا أن الابتلاءات اليومية، مهما كانت بسيطة، هي فرصة للتعلم من الصبر والاعتماد على الله، وتطبيق دروس التوحيد في كل موقف صغير وكبير.

الابتلاء النفسي والاجتماعي المعاصر

في العصر الحديث، الابتلاء اليومي قد يكون أكثر تنوعًا:

الوحدة، الإحباط، الضغوط النفسية من العمل أو الدراسة.

القلق من المستقبل أو التفكير المستمر في المشكلات المالية والاجتماعية.

الشعور بالظلم أو عدم التقدير في العمل أو المجتمع.

التغلب على هذه الابتلاءات يحتاج إلى:

1. التمسك بالذكر والدعاء: مثل قراءة القرآن، الصلاة على وقتها، الاستغفار، والذكر المستمر.

2. التوكل على الله في كل الأمور: الإيمان بأن كل شيء بيد الله، وأن كل ابتلاء له حكمة.

3. الصبر والاحتساب: قبول البلاء كاختبار من الله، والاحتساب في كل فعل.

أمثلة عملية

طالب جامعي يواجه ضغوطًا دراسية كبيرة: الصبر على المذاكرة والسهر، مع التوكل على الله، يجعل النتائج مرضية ويكسب رضا الله.

موظف يتعرض للظلم أو الضغط في العمل: الصبر والاحتساب يحميه من الانفعال ويكسبه الأجر.

أم تواجه مشاكل مع أبنائها: الصبر واللين في التربية يعكس قوة الإيمان ويعلم الدروس الروحية لأطفالها.

لكي يفهم الإنسان قيمة الابتلاء اليومي، يجب أن يرى كيف تعامل القدوات الصالحة مع الابتلاءات اليومية. ليس فقط الأنبياء هم من تعرضوا للابتلاءات الكبرى، بل الصحابة والتابعون الصالحون عايشوا أنواعًا مختلفة من الابتلاءات اليومية التي اختبرت صبرهم وإيمانهم.

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان يعيش حياة بسيطة جدًا، ولم يكن لديه أموال كثيرة، لكنه كان دائم الحرص على الصلاة في وقتها، الصيام، والصدقة. ابتلاءاته كانت في التوازن بين الحياة اليومية والتقوى، ولم يسمح لأي ضغط مادي أو اجتماعي أن يضعفه عن أداء الواجب.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: تعرض في حياته للمشكلات الأسرية، وقسوة القتال والحروب، لكنه ظل ثابتًا على توجيه أسرته وتربية أبنائه على التقوى والصبر، معتمدًا على الله في كل تفاصيل حياته اليومية.

هذه الأمثلة تذكرنا أن الابتلاء اليومي قد يكون أقل فظاظة من الابتلاءات الكبرى، لكنه أصعب لأنه مستمر ومتكرر، ويحتاج إلى صبر دائم وذكاء روحي وعقلاني.

الابتلاءات النفسية والضغط الداخلي

الابتلاءات النفسية من أصعب أنواع الابتلاءات، لأنها غير مرئية للآخرين، وقد لا يتفهمها المحيطون بك. هذه الابتلاءات تشمل:

القلق المستمر بشأن المستقبل أو الأهل أو العمل.

الخوف من الفشل، أو الشعور بالعجز أمام المسؤوليات.

الانزعاج النفسي من سوء فهم الآخرين أو الانتقادات المستمرة.

هنا يظهر دور الاعتماد على الله والذكر المستمر. فالمؤمن الذي يربط قلبه بالله يجد في الذكر والقراءة اليومية للقرآن طمأنينة، كما قال الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28)

الذكر المستمر، مثل الصلاة على وقتها، الاستغفار، والأذكار الصباحية والمسائية، يجعل القلب أكثر ثباتًا، ويخفف أثر الابتلاء النفسي، ويجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهة صعوبات الحياة اليومية.

الابتلاء في العلاقات الاجتماعية

الإنسان جزء من مجتمع، وهو معرض دائمًا للاختبارات الاجتماعية:

الخلافات مع الزملاء، الجيران، أو الأهل.

مواجهة الحسد أو سوء الظن من الآخرين.

التعامل مع الظلم أو الانتقاد في العمل أو المدرسة.

في هذه الحالات، الصبر واللين وحسن الخلق ليسا فقط وسيلة للحفاظ على العلاقة الاجتماعية، بل اختبارًا للإيمان والتوحيد. فالإنسان الصابر في علاقاته يعكس قوة إيمانه، ويظهر أثر التوحيد في سلوكه اليومي.

قال رسول الله ﷺ:
« لا يُؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (متفق عليه)
وهذا الحديث يوضح أن التعامل مع الناس بالعدل والمودة هو جزء من الصبر على الابتلاء الاجتماعي، وهو امتداد للثبات على التوحيد في الحياة اليومية.

الصبر على فقد الأحبة في الحياة اليومية

ليست كل الابتلاءات مرتبطة بالمال أو العمل أو العلاقات، بل هناك ابتلاءات أخف أثرًا ظاهريًا لكنها أعمق تأثيرًا نفسيًا وروحيًا، مثل فقد الأحبة أو الحزن على من غاب عن حياتنا.
فقد صديق، أو قريب، أو زميل في العمل يمكن أن يكون امتحانًا للصبر والاعتماد على الله.
الصبر على هذه المشاعر وعدم الاستسلام للحزن الشديد أو اليأس، واعتبار الابتلاء وسيلة للتقرب إلى الله والاحتساب.

قال الله تعالى:
﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: 35)
الشر في هذه الآية يشمل الحزن، الفقد، المرض، وكل ابتلاء نفسي أو اجتماعي، والخير يشمل الرزق، الصحة، والنجاح. الإنسان الحكيم يعتبر كلاهما فرصة لتزكية النفس وتقوية الصبر والاعتماد على الله.

الربط بين الابتلاءات اليومية والابتلاءات الكبرى

الابتلاءات اليومية قد تبدو بسيطة بالمقارنة مع الابتلاءات الكبرى التي تعرض لها الأنبياء والصالحون، لكنها متكررة ومستمرّة، وهذا يجعلها أكثر تأثيرًا على الشخصية إذا لم يتحلى الإنسان بالصبر والاعتماد على الله.

مثلًا، الشخص الذي يواجه ضغوط العمل اليومية ويتعلم الصبر والاتزان، يكون مؤهلاً للتعامل مع ابتلاءات أكبر مثل المرض أو فقدان أحد الأحبة.

الصحابة والتابعون كانوا يواجهون الابتلاءات اليومية من فقر، حروب، مسؤوليات اجتماعية، وتعلموا أن الصبر والرضا بالقضاء والاعتماد على الله هما مفتاح النجاة.

نصائح عملية للتعامل مع الابتلاءات اليومية

1. تسجيل اليوميات ومراجعة النفس:
الكتابة عن مشكلات اليوم تساعد الإنسان على ترتيب أفكاره، وفهم مصدر الابتلاء، وتحويل القلق إلى دعاء وصبر.

2. الاستغفار والذكر:
المحافظة على الأذكار اليومية، خاصة قبل النوم وبعد الصلاة، تجعل القلب مستعدًا لمواجهة أي ابتلاء جديد.

3. الابتعاد عن السلبيات:
الابتعاد عن الأشخاص السلبيين، أو الأفكار المحبطة، والالتزام بالنشاطات الإيجابية، يساعد على تقليل أثر الابتلاء النفسي.

4. الاعتماد على الله والتوكل:
فهم أن كل ابتلاء جزء من خطة الله لرفع درجات الإنسان وكفارة ذنوبه، يجلب طمأنينة للقلب ويخفف العبء النفسي.

الفصل الثالث أظهر أن الابتلاء اليومي هو مدرسة مستمرة، تعلم الإنسان الصبر، وتعزز التوكل على الله، وتربّي النفس على ضبط المشاعر، والتحكم في النفس أمام صعوبات الحياة اليومية.

كل تجربة، مهما كانت صغيرة، تحمل معها درسًا روحانيًا وعقليًا:

الصبر على الابتلاء المادي يجعل الإنسان أكثر حكمة في إدارة موارده.
الصبر على الابتلاء النفسي يعزز قوة الشخصية والهدوء الداخلي.
الصبر على الابتلاء الاجتماعي يعكس التوحيد في السلوك، ويجعل الإنسان أكثر تأثيرًا إيجابيًا في المجتمع

كما قال الله تعالى:
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28)
فالذكر هو الوسيلة الأساسية لطمأنة القلب، والتعامل مع الابتلاءات اليومية بثقة وإيمان.

الفصل الرابع الابتلاء فى حياة الأنبياء

منذ اللحظة التي خلق الله فيها أول إنسان، بدأت رحلة الابتلاء التي ستظل جزءًا أساسيًا من حياة البشر. لم يكن آدم عليه السلام مجرد بداية لوجود الإنسان، بل كان رمزًا للابتلاء الأول، للتعلم، للمسؤولية، وللفهم الحقيقي لمعنى الطاعة والتوبة.

الأنبياء والرسل هم القدوة في تحمل الابتلاءات بصبر وإيمان. من خلال قصصهم، نتعلم كيف نواجه الصعوبات، ونتحلى بالصبر، ونلجأ إلى الله في كل الأوقات. الابتلاء ليس عقابًا، بل فرصة للنمو الروحي والارتقاء بالروح والقلب.

قال الله تعالى:
﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

1. آدم عليه السلام:

خلق الله آدم من تراب الأرض، ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفة في الأرض، علمه أسماء كل شيء، وأكرمه بنعمة الجنة وحياة مليئة بالراحة والسكينة.
لكن مع هذه النعمة جاء ابتلاء بسيط في الظاهر، عميق في المعنى: أمره الله بعدم الاقتراب من شجرة معينة. لم يكن هذا مجرد تحذير، بل اختبارًا لإرادة الإنسان، ومدى إدراكه للمسؤولية واتباع الأوامر.

وفي قلب الجنة، وبين الخيرات التي لا تعد ولا تحصى، جاء الشيطان ليلعب على الوتر الحساس للإغواء. وسوس لآدم وزوجه، حثهما على مخالفة الأمر الإلهي، وبالطبع وقع الخطأ.

حين أدرك آدم وزوجه ما فعلوا، اجتاحهما شعور بالخوف والندم، وكانت هذه اللحظة أول لحظة مواجهة حقيقية للخطأ والابتلاء في تاريخ البشرية. لم يكن مجرد شعور بالذنب، بل فهم حقيقي للمسؤولية، ولحاجة الإنسان للرحمة والمغفرة.

استجاب آدم للتوبة بإخلاص، وتعلم أن الخطأ وارد، لكن التوبة النصوح تصحح المسار. قال الله تعالى:
﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37)

من قصة آدم نتعلم أن:

الابتلاء جزء من التجربة الإنسانية.

التوبة النصوح تصحح مسار الإنسان مهما أخطأ.

المسؤولية الفردية والاختيار الحر أساسيان في حياة الإنسان.

تخيل قلب آدم، حين اجتاحه الشعور بالذنب، كيف شعر بالمسؤولية لأول مرة، وكيف خاض رحلة الندم والتوبة، ليصبح أول من واجه الابتلاء في حياة البشر، ولتكون قصته درسًا خالدًا للأجيال في مواجهة الخطأ والصبر على التعلم والنمو الروحي.

2. نوح عليه السلام: صبر طويل في مواجهة الكفر

بعد أجيال طويلة من آدم، جاء نوح عليه السلام، أحد أولوا العزم من الرسل، ليحمل رسالة الله إلى قوم غارقين في الكفر والفساد. ابتليه الله بصبر طويل لا مثيل له، فقد دعا قومه تقريبًا 950 سنة، يكرر كلامه كل يوم، سنة بعد سنة، بلا كلل أو ملل.

تخيل رجلًا واقفًا أمام قوم يستهزئون به، يرمونه بالكلمات الجارحة، ويكذبونه باستمرار، ومع ذلك قلبه مملوء بالإيمان، لم ييأس، وظل يدعو بالحكمة والرحمة. لم تكن دعوته مجرد كلام، بل رسالة صبر وأمل لمن أراد الهداية، ودرس لكل من يواجه الصعاب.

مع طول الدعوة، جاء أمر الله ببناء السفينة استعدادًا للطوفان. تخيل حجم المشقة البدنية والنفسية التي تحملها نوح عليه السلام، وهو يعلم أن معظم قومه لن يستجيبوا، وأن الأيام القادمة ستكون مليئة بالتحديات والمحن.

قال الله تعالى:
﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ من الكرب العظيم﴾ (الصافات:76)

تخيل روح نوح وهو يرى الطوفان يقترب، لكنه مطمئن لوعد الله، قلبه مملوء بالثقة والاعتماد على الله. كانت هذه أعظم رحلة صبر في تاريخ البشرية، مثالًا للثبات في الدعوة والاعتماد على الله في أشد الظروف.

من قصة نوح نتعلم أن:

الصبر على السخرية والرفض جزء من الابتلاء.

الثبات على الحق والدعوة مهما طال الزمن طريق للنجاة.

الاعتماد على الله وحده في أشد المحن يقود إلى الفلاح والنجاة.

هود عليه السلام

بعثه الله إلى قوم عاد الذين سكنوا الأحقاف، كانوا أصحاب قوة في الأجسام، بارعين في البناء، مغترّين ببطشهم. دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام. كان ابتلاؤه أنه واجه قومًا متجبرين يسخرون منه ويستهزئون بدعوته. قالوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» [فصلت:15]. استمر في دعوتهم صابرًا، مبيّنًا أن القوة لله جميعًا. فلما أصرّوا على الكفر أُهلكوا بريح صرصر عاتية استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام. نجا هود ومن آمن معه، فكان صبره وثباته على الحق هو ابتلاؤه الأكبر.

صالح عليه السلام

أُرسل إلى قوم ثمود بعد عاد، وكانوا بارعين في نحت البيوت في الجبال. دعاهم صالح إلى التوحيد، وطلبوا منه آية فكانت الناقة التي أخرجها الله من الصخرة، لتكون اختبارًا لهم. أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء، فجعل الله ماءهم مقسومًا بينها وبينهم. لكن كبرياءهم غلبهم، فعقروها. ابتلاء صالح كان شديدًا: أن يرى قومه يكفرون بعد وضوح الحجة، وأن يسمع تهديدهم له. قالوا: «ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ المرسلينَ» [الأعراف:77]. ثم جاءهم العذاب: الصيحة والرجفة، فهلكوا جميعًا، ونجا صالح والمؤمنون معه.

ابتلاءات سيدنا إبراهيم عليه السلام

منذ أن فتح إبراهيم عليه السلام عينيه على الدنيا، وجد نفسه في بيتٍ غارق في عبادة الأصنام. كان أبوه "آزر" يصنع التماثيل ويبيعها للناس، والناس يركعون ويسجدون لها كأنها آلهة. هنا بدأ أول ابتلاء في حياته: أن يعيش وحيدًا بين قومٍ يعبدون ما يصنعون بأيديهم، وهو يشعر أن الحق غير ذلك. كان قلبه يتطلّع إلى ربٍّ أعظم، ربٍّ لا يُرى ولا يُصنع من حجر أو خشب.

بدأ إبراهيم يسأل أباه: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» [مريم:42]. لكن أباه لم يُصغِ له، بل هدده قائلًا: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ» [مريم:46]. كان الابتلاء الأول إذن: رفض الأب والبيت، فخرج إبراهيم يبحث عن ربه وحده.

ثم جاء ابتلاء العقل والتفكر. نظر إلى الكوكب وقال: هذا ربي. فلما أفل، قال: لا أحب الآفلين. ثم نظر إلى القمر، ثم إلى الشمس، وكلما غاب جرمٌ سماوي تبيّن له أنه لا يصلح أن يكون إلهًا. حتى استقرت نفسه على رب السماوات والأرض، وقال كلمته الخالدة: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» [الأنعام:79]. كان هذا ابتلاء البحث عن الحقيقة، ونجح فيه باليقين.

ثم كان ابتلاء المواجهة مع القوم. وقف في جمعهم وسخر من أصنامهم: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» [الصافات:95]. وحين غابوا، دخل المعبد وحطّم الأصنام كلها إلا كبيرهم، ليقيم الحجة عليهم. فلما عادوا ثائرين سألوه: من فعل هذا؟ فأشار إلى الصنم الكبير وقال: بل فعله كبيرهم، فاسألوهم إن كانوا ينطقون. هنا عجزوا، لكن كبرياءهم غلبهم. فحكموا عليه بأشد عقوبة: أن يُلقى في النار.

اجتمع القوم وأوقدوا نارًا عظيمة حتى صارت كالبحر المتلاطم، ثم قذفوا إبراهيم فيها بالمنجنيق. كان هذا من أعظم الابتلاءات: أن يرى الموت أمامه في ألسنة اللهب. لكن الله الذي آمن به لم يخذله، قال سبحانه: «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [الأنبياء:69]. فخرج منها سالمًا، ليكون درسًا في أن النجاة بيد الله وحده.

بعد ذلك، جاء ابتلاء الغربة. هاجر إبراهيم مع زوجته سارة إلى الأرض المباركة، تاركًا وطنه وأهله، لا يحمل إلا إيمانه. ثم ابتُلي بحرمان الولد سنوات طويلة، وهو يتمنى الذرية ليحمل الرسالة من بعده. دعا ربه : «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» [الصافات:100]. وبعد طول انتظار، وهبه الله إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة. كان هذا ابتلاء الصبر على طول الحرمان، ثم شكر النعمة عند تحقق الرجاء.

لكن أشد الابتلاءات جاء بعد ذلك: حين أمره الله أن يأخذ هاجر وابنها الرضيع إسماعيل، ويتركهما في وادٍ غير ذي زرع، عند البيت الحرام. أطاع إبراهيم الأمر، وتركهما دون ماء ولا زاد إلا القليل، ثم عاد أدراجه. لحقت به هاجر تقول: يا إبراهيم، أتتركنا هاهنا؟ فلم يجبها. فقالت: آلله أمرك بهذا؟ فأومأ برأسه نعم. عندها قالت بيقين المؤمن: إذن لن يضيّعنا. كان ابتلاءً شديدًا لإبراهيم: أن يترك أحب الناس إلى قلبه في صحراء قاحلة لا أنيس فيها. لكنه سلّم لأمر الله، فجعل الله من هذا البلاء بركة، ففجّر ماء زمزم، وأقام البيت العتيق، وصارت مكة قبلة للعالمين.

ثم جاء الابتلاء الأعظم في حياة إبراهيم: الرؤيا التي رآها وهو يذبح ابنه إسماعيل. لم تكن الرؤيا عابرة، بل وحيًا من الله. كيف يطيق الأب أن يذبح فلذة كبده بيده؟ لكنه مضى إلى ابنه، وقال: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى» [الصافات:102]. فجاء الجواب من قلب مؤمن صادق: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». مشى به إلى المذبح، وضع السكين على عنقه، لكن السكين لم تعمل. لقد اجتاز إبراهيم وابنه معًا أصعب امتحان في تاريخ البشرية. ناداه الله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا»، وفُدي إسماعيل بكبش عظيم.

ولم يقف الابتلاء عند هذا الحد، فقد ابتلاه الله بكلمات فأتمهن، فجعل الله له الإمامة: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» [البقرة:124]. ابتُلي بالهجرة، وبترك الأوطان، وبمواجهة الطغاة كالنمرود الذي جادله في ربه. ابتُلي ببناء الكعبة مع ابنه إسماعيل، يرفعان القواعد وهما يدعوان: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا».

إبراهيم هو خليل الرحمن، لكن الخُلّة لا تُنال إلا بالصبر على البلاء. اجتاز كل امتحانٍ بإيمان راسخ، حتى صار إمامًا للموحدين، وجعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملته: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» [النحل:123].
1- الابتلاء في حياة السيدة سارة عليها السلام

السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم الأولى، وكانت مثالاً للوفاء والطهر. ابتليت بالصبر على طول السنين دون إنجاب، وهي أمنية كل امرأة. ورغم ذلك، ظلت صابرة راضية بقضاء الله، مؤمنة أن الخير فيما يقدره رب العالمين. وكانت إلى جانب سيدنا إبراهيم في دعوته، تسانده وتهاجر معه من بلد إلى بلد، تترك أهلها وأرضها ابتغاء مرضاة الله.

ومن أعظم ابتلاءاتها ما كان من خوفها على سيدنا إبراهيم في مواجهة الجبابرة، فقد تعرضت لمواقف شديدة حين حاول بعض الملوك أن يتعرض لها، فنجّاها الله بمعجزته، وأكرمها ببركته.

فكان جزاؤها في الدنيا أن بشرها الله على كِبر بالولد إسحاق، ومن بعده الحفيد يعقوب، فجمعت بين مقام الصبر ومقام الفرح بالذرية المباركة. وأما في الآخرة، فلها مقامها الرفيع مع الصالحين.

2- الابتلاء في حياة السيدة هاجر عليها السلام

السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم الثانية، ابتليت ابتلاءً عظيمًا حين تركها إبراهيم بامر الله في وادٍ غير ذي زرع مع وليدها إسماعيل. لا ماء ولا طعام ولا أنيس. ومع ذلك، كان قلبها عامرًا بالإيمان، فسألت إبراهيم: "آالله أمرك بهذا؟" فقال: "نعم." فأجابت بثقة ورضا: "إذن لن يضيعنا الله."

ثم ظهر ابتلاؤها في سعيها بين الصفا والمروة تبحث عن الماء، حتى أكرمها الله بزمزم الذي صار حياةً لمكة كلها.

فكان صبرها سببًا في أن يقترن ذكرها إلى يوم القيامة بركن عظيم من أركان الحج وهو السعي بين الصفا والمروة.

3- الابتلاء في حياة سيدنا إسماعيل عليه السلام

نشأ إسماعيل في بيئة قاسية، بعيدة عن الرفاهية، لكنه تربى على الصبر والشدة. وكان أعظم ابتلاء في حياته رؤيا أبيه إبراهيم حين أُمر بذبحه. فلم يتردد ولم يعترض، بل أجاب:
﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

فجعل الله هذا الموقف مثالاً أعلى للتسليم والطاعة. وفداه بكبش عظيم، وجعل هذا البلاء شعيرة خالدة في الأمة، وهي الأضحية في عيد الأضحى المبارك.

وكان جزاؤه في الدنيا أن صار نبيًا عظيمًا، وأبًا للأنبياء من ذريته، ومنهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ. وأما في الآخرة، فله المقام الكريم عند ربه.

ثمرة الصبر على الابتلاء

في الدنيا: رفع الله ذكرهم، وخلّد مواقفهم، وجعل أعمالهم شعائر يتقرب بها المسلمون في الحج والأضحية والسعي.

في الآخرة: لهم أعظم الجزاء وأرفع المنازل في الجنة، حيث لا خوف ولا حزن.

لوط عليه السلام

كان نبيًا معاصرًا لإبراهيم، ابتُلي بأن قومه من أهل سدوم كانوا يرتكبون فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين. دعاهم لوط مرارًا إلى الفطرة السليمة، وإلى ترك الفاحشة والإقبال على النساء. لكنهم كذبوه، بل وطلبوا إخراج الطاهرين من قريتهم. بلغ به الابتلاء أن ضاق صدره ولم يجد ناصرًا، فقال: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» [هود:80]. فجاءت الملائكة مبشّرينه بالعذاب الذي سينزل بقومه، وأُمر أن يخرج مع أهله إلا امرأته التي خانته بالكفر. نزل العذاب، فقُلبت قراهم عاليها سافلها، وأمطروا بحجارة من سجيل.

قصة يعقوب عليه السلام – الابتلاء بفقد الأحبة

يعقوب عليه السلام، ابن إسحاق وحفيد إبراهيم، هو أحد الأنبياء الذين ابتلاهم الله ببلاء شديد، لكنه ظل صابرًا محتسبًا ومتمسكًا بالحق. قصته تمثل أحد أعظم الابتلاءات العائلية التي واجهها الأنبياء، وهي فقد الأحبة والاختبارات الطويلة للصبر على المصائب.
عاش يعقوب في بيئة مليئة بالتحديات. كان محبًا لأولاده ومهتمًا بهم، ويحرص على تربيتهم على طاعة الله. من بين أولاده، كان يوسف عليه السلام أكثرهم حنانًا وعقلًا وذكاءً. هذا الحب كان مصدر سعادة كبيرة ليعقوب، ولكنه أيضًا كان بداية ابتلاء عميق.
البيت كان مفعمًا بالحياة، الأطفال يلعبون حول يعقوب، يوسف يقترب منه دائمًا، بينما يعقوب يراقب بحنان وقلق. في داخله شعور بالمسؤولية، فهو يعلم أن تربية الأولاد ليست سهلة، وأن عليهم أن يواجهوا الحياة بالصبر والإيمان.

ابتُلي يعقوب بفقد يوسف عليه السلام، عندما قام إخوته بخيانته وألقوه في البئر بسبب الغيرة والحقد. وصل خبر فقد يوسف إلى يعقوب، فأصاب قلبه حزن عميق، وبدأت أيام من القلق والانتظار. لكنه لم ييأس، واحتسب ما أصابه عند الله، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: 18)
يعقوب كان يبكي ويطلب من الله الصبر والثبات، مؤمنًا بأن الابتلاء جزء من حكمة الله، وأن الفرج قادم مهما طال الزمن.

الصبر والاحتساب

في لحظات هدوءه، كان يعقوب يذكر نعم الله عليه، ويثبت قلبه، محتسبًا كل ما أصابه. لم يكن الانتظار سلبيًا، بل نشاطًا روحيًا يوميًا: دعاء، استغفار، وإيمان راسخ بأن الله لا ينسى عباده الصالحين.
على مدار السنوات، ظل يعقوب صابرًا، لم ييأس من رحمة الله، ولم يسمح لليأس أن يتغلب على قلبه. هذا الصبر كان درسًا خالدًا في الثبات على الحق والصبر على فقد الأحبة.

النهاية والفرج
بعد سنوات طويلة من الصبر والانتظار، أراد الله أن يجمع يوسف مع أبيه. جاء اليوم الذي اجتمع فيه الأب بالابن، وكان فرحًا وسعادة لا توصفان بعد ابتلاء طويل.

قصة يوسف عليه السلام – الابتلاء بالفتنة والظلم

يوسف عليه السلام هو أحد أعظم الأنبياء، وقد ابتُلي بمحن شديدة منذ صغره، لكنها كانت فرصة لإظهار الصبر، الثبات على الحق، والتوكل على الله. ابتلاءاته شملت الخيانة، الفتنة، السجن، والتحدي في إدارة المسؤوليات، لتصبح قصته نموذجًا خالدًا للصبر على البلاء وتحقيق النصر بالثقة بالله.

بداية الابتلاء
يوسف كان الابن المحبوب ليعقوب، وقد أحبّه الله ووهبه فضائل عديدة. حسد إخوته مكانته ومحبة أبيه له، فقرروا التخلص منه، وألقوه في البئر. هذا الحدث كان بداية سلسلة ابتلاءات طويلة. رغم الخيانة والظلم، بقي يوسف صابرًا محتسبًا، معتمدًا على الله في كل موقف.

قال الله تعالى:
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: 3)

الفتنة في بيت العزيز

بعد أن بيع يوسف كعبد، اشتراه العزيز، وكان عزيز مصر رجلاً ذا سلطة. حاولت امرأة العزيز إغواؤه، فابتُلي يوسف بفتنة قوية. يوسف عليه السلام رفض الوقوع في المعصية وتمسك بالحق، مظهراً صبره على الابتلاء والقدرة على مقاومة الفتن. رفضه للفتنة لم يكن مجرد مقاومة شخصية، بل تأكيد على الالتزام بالله والطاعة، حتى لو أدى ذلك للسجن والابتعاد عن الحرية.

السجن ظلمًا
رفض يوسف للفتنة أدى إلى سجنه ظلمًا. رغم الظلم، بقي يوسف محتسبًا، وأظهر ثباتًا روحيًا وقوة في تحمل الابتلاء. في السجن، تعلم يوسف فن الصبر والتوكل على الله، وكان مثالًا على القدرة على الاستمرار في الدعاء والاحتساب رغم صعوبة الظروف.

التأويل والحكمة
في السجن، التقى يوسف بسجناء آخرين، وبرزت قدرته على تفسير الأحلام بدقة. هذه النعمة من الله كانت تجربة جديدة، ابتلاء بالحكمة والقدرة على حل المشكلات. أصبح يوسف عليه السلام معروفًا بالحكمة والصدق، ما مهد له الطريق لإدارة الأمور الكبرى بعد خروجه من السجن.
النصر والتثبيت

بعد سنوات من الصبر، أظهر الله فضل يوسف على الأرض، فأصبح وزيرًا في مصر، مسؤولا عن الاقتصاد والإدارة، وقد نجح في اختبار الأمانة، الحكمة، والقدرة على إدارة الناس. لم يكن النصر مجرد مكانة، بل درسًا في الصبر على الابتلاء، والتوكل على الله في مواجهة كل المحن.

الدروس المستفادة

1. الابتلاء قد يكون في صورة فتنة أو ظلم أو محن طويلة، لكنه فرصة لإظهار الإيمان والثبات على الحق.

2. التوكل على الله والثقة برحمته يحقق الفرج في أصعب الظروف.

3. الصبر والاحتساب أساس النجاح والفلاح، والنصر قد يأتي بعد فترة طويلة من البلاء.

أيوب عليه السلام

ابتلي في جسده وماله وأهله، فصبر صبرًا عجيبًا حتى صار قدوة في الصبر. لم يجزع، ولم يتوقف عن ذكر الله، وظل يقول: ربي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فرفع الله عنه البلاء، ورد عليه عافيته وأهله ومثلهم معهم رحمةً وذكرى للعابدين.

ذو الكفل عليه السلام

كان نبيًا صالحًا، عُرف بالوفاء بما عاهد الله عليه. لم يتراجع عن العبادة، ولم يترك العدل بين الناس، فصار مثلًا للثبات والصبر. وقد سُمّي بـ "ذو الكفل" لأنه تكفّل بما أمره الله به وأوفى.

صبر أم موسى

أم موسى عليها السلام ابتُليت ابتلاءً شديدًا حين جاءها أمر فرعون بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل. كان قلبها يعتصر خوفًا وحزنًا على طفلها، ولكنها تحلت بالصبر والإيمان. كانت تعرف أن الله قادر على حفظه، فوضعت ثقتها بالله، وأخذت تدبر أمره بحكمة، فوضعت موسى في تابوت وألقته في اليم، متوكلة على الله.
صبرها كان صبر الأم على الابتلاء النفسي والخوف الشديد من بطش فرعون، لكنها استمدت قوتها من اليقين بأن الله لا يضيع من اتّكل عليه. وقد أثمرت صبرها حفظ موسى ليصبح نبيًا، ونجاة الأسرة، ودليلًا على أن الصبر على البلاء مع التوكل على الله ينتج الخير الكبير.

صبر أخت موسى

أخت موسى عليها السلام ابتُليت هي الأخرى، إذ كان عليها دور مهم في حماية أخيها الرضيع. فكانت تراقب التابوت في النيل وهي تخشى أن يراه أحد من خدم فرعون أو يسقط، لكنها لم يضعف قلبها، وظلت تتبع أمر الله وتنتظر المعجزة.
هذا الابتلاء كان اختبارًا لصبرها وحكمتها، وكان صبرها سببًا في أن يصل موسى إلى بيت أمّه بأمان، وأن يظل محفوظًا بأمر الله.
وهكذا يُظهر القرآن أن البلاء يشمل جميع أفراد الأسرة المؤمنين، وأن الصبر والثقة بالله هما طريق النجاة.

ابتلاء ماشطة بنت فرعون
ماشطة بنت فرعون ابتُليت بوجودها في بيت الظلم والطغيان، وسط قصر فرعون الذي يمتلئ بالقسوة والخوف. كانت شاهدة على قتل الأبرياء، وعلى بطش فرعون المستمر، لكنها كانت مؤمنة في قلبها بالخوف من الله والحق.
أعظم ابتلاء واجهته كان عند ولادة موسى عليه السلام، حين أُمر فرعون بقتل المواليد. فاختارت، برحمة وإيمان، أن تحمي موسى كما تستطيع، فاتخذت قرارًا بحفظه على قدر استطاعتها، فكان ابتلاؤها اختبارًا لصبرها وإيمانها، وثبتت على الحق في خفاء.
وصبرها أدى إلى حفظ موسى، لتكتمل رسالته ويصبح رسولًا.

موسى وهارون عليهما السلام

ذكر الله قصة موسى في مواضع كثيرة من كتابه، وهي أطول قصة نبي في القرآن.

أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه بالآيات البينات، فقال له ربه:

"اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ."
[النازعات: 17-19]

فواجه فرعون دعوة موسى بالتكذيب والعناد، فأظهر الله على يد موسى المعجزات: العصا التي تتحول حيّة تسعى، واليد التي تخرج بيضاء للناظرين، والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم.

وقال تعالى:

"فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ."
[النازعات: 20-24]

وأيّد الله موسى بأخيه هارون،
فذهبا معًا إلى فرعون بالحق المبين، فاستكبر وقال: "ما علمت لكم من إله غيري". فلما جاء أمر الله، أنجى موسى ومن معه من المؤمنين، وشق لهم البحر، فمروا فيه آمنين، ثم أغرق فرعون وجنوده.
ثم ابتُلي موسى مع بني إسرائيل بعد النجاة، فكفر كثير منهم النعمة، وعبدوا العجل، وتخاذلوا عن دخول الأرض المقدسة، فصبر موسى وأخوه هارون حتى قضى الله أمره.

قصة داود عليه السلام – الابتلاء بالحكم والسلطة

داود عليه السلام كان نبيًا وملكًا، وابتلاه الله بمسؤوليات كبيرة: الحكم بين الناس، قيادة الجيوش، وإدارة الأمور الكبرى للملك. هذه الابتلاءات كانت فرصة لإظهار العدل، الصبر، والاعتماد على الله. كما تعلم داود درس التوبة بعد الزلة، ليصبح نموذجًا متكاملًا للصلاح والقيادة الرشيدة.

بداية الابتلاء
عندما تولى داود الحكم، وجد نفسه أمام قوم متنوعون في طبائعهم، بعضهم صالحون، وبعضهم مائلون للظلم والفساد. كان عليه أن يوازن بين القوة والرحمة، بين العدل والرحمة، وبين شدة العقاب ورفق القلوب.
الملك الصغير الذي أصبح قائدًا للأمة تعلم أن الحكم ليس مجرد سلطة، بل مسؤولية كبيرة تضعه أمام امتحانات يومية. عليه أن يقرر بين الظالم والمظلوم، ويكون قدوة في الصبر على البلاء، وتحمل الأعباء الثقيلة.

الابتلاء بالسلطة والمسؤولية

كان داود عليه السلام يتلقى شكاوى الناس يوميًا، بعضها بسيط وبعضها معقد. عليه أن يحكم بالعدل مهما كانت الظروف، وأن يتحمل الضغوط السياسية والاجتماعية.
الابتلاء كان في قدرة داود على إدارة القوة والسلطة بالشكل الصحيح، وعدم الانحراف عن الحق مهما كبرت المصالح أو المغريات.

قصة سليمان عليه السلام – ابتلاء الملك والخيل

سليمان عليه السلام كان نبيًا وملكًا عظيمًا، جمع الله له بين الحكمة والنبوة والملك الواسع. أُوتي من كل شيء: علم، حكم، جنود من الإنس والجن والطير، وخيل عظيمة كانت رمزًا للقوة والهيبة. ابتلي سليمان عليه السلام بابتلاءات متنوعة: حب الخيل، مسؤولية الحكم، والامتحان في الثبات على طاعة الله رغم كل النعم.

الابتلاء بالخيل
كان سليمان عليه السلام يحب الخيل كثيرًا، فهي رمز القوة، وسلاح الأمم في زمانه، وزينة الملوك.
ابتلاؤه كان في أن حبه للخيل شغله في لحظة عن ذكر الله. لكنه سرعان ما أدرك ذلك، فعاد إلى الله تائبًا، وقدم لله كل ما يملك، ليؤكد أن محبته الكبرى لله لا للخيل.

الابتلاء بالملك

لم يكن حب الخيل وحده ابتلاءه، بل كان ملكه كله امتحانًا عظيمًا. فقد حكم أمة عظيمة، تشمل الإنس والجن والطير. كان عليه أن يوازن بين العدالة والقوة، وأن يقيم حكم الله في الأرض.

أُعطي سليمان قدرات خارقة: فهم لغة الطير، وتسخير الريح، والقدرة على التحكم في الجن. كل هذه النعم كانت ابتلاءً ليرى الله هل يشكر أم يكفر.

الصبر والحكمة

في إدارة شؤون المملكة، واجه سليمان مواقف تحتاج إلى صبر عظيم وحكمة بالغة. مثلًا: قصة النملة التي خافت على قومها من جيشه، فابتسم سليمان من قولها ودعا الله بالشكر. هذه القصة تظهر رقة قلبه رغم عظمة ملكه، وقدرته على التواضع أمام أصغر المخلوقات.
دروس من القصة

1. حب الخيل وغيره من زينة الدنيا مشروع، لكن لا يجوز أن يطغى على ذكر الله وطاعته.

2. النعم الكبيرة مثل الملك والسلطة ابتلاء عظيم، تحتاج إلى شكر دائم حتى لا تصبح نقمة.

3. التواضع أمام الخلق، مهما صغر شأنهم، دليل على الحكمة والعدل.

4. التوبة والإنابة إلى الله طريق الخلاص من كل زلة وامتحان.

إلياس عليه السلام
إلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل، بعثه الله إلى قوم كانوا يعبدون صنمًا يُسمّى بعلًا. فجاءهم بالإنذار والتذكير، فقال لهم:

"وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ."
[الصافات: 123-126]

فلم يذكر القرآن تفاصيل كثيرة عن حياته، لكن الثابت أنه كان نبيًا يدعو قومه للتوحيد، فكذبوه، فنجاه الله وأهلك المكذبين.

اليسع عليه السلام
ورد ذكره في القرآن مرتين، دون تفاصيل عن حياته أو ابتلائه:

قال تعالى:

"وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ."
[الأنعام: 86]

وقال سبحانه:

"وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ."
[ص: 48]

إذن، كل ما نعلمه يقينًا من القرآن أن اليسع عليه السلام كان نبيًا من الأخيار، ممن اصطفاهم الله وفضّلهم على العالمين.

المفسرون ذكروا أنه جاء بعد إلياس عليه السلام، وأنه واصل الدعوة إلى التوحيد بين بني إسرائيل، لكنه لاقى مثل ما لاقى غيره من الأنبياء من تكذيب وإعراض.

يونس عليه السلام

أرسله الله إلى قومه في نينوى (بأرض العراق اليوم). دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، فاستكبروا وكذّبوه. فلما طال عنادهم خرج من بينهم غاضبًا قبل أن يأذن الله له.

قال تعالى:
"وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ."
[الأنبياء: 87]
فلما ركب البحر واضطربت السفينة، ألقى القرعة فوقعت عليه، فأُلقي في الماء، فابتلعه الحوت بأمر الله. وفي بطن الحوت، في ظلمات البحر، نادى ربه بتلك الكلمات الصادقة، فاستجاب الله له:
"فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ."
[الأنبياء: 88]
ثم نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وأرسله الله مرة أخرى إلى قومه، فآمنوا به جميعًا.
قال تعالى:
"فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ۖ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ."
[يونس: 98]

فكانت قصته مثالًا على رحمة الله، وأنه يقبل توبة عباده إذا رجعوا إليه.

قصة زكريا عليه السلام

كان زكريا نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل داوود وسليمان. عاش في القدس، وكان إمامًا للناس ومعلمًا لهم دينهم. تميز بالزهد والتقوى والصبر، وكان خادمًا في بيت المقدس.

كفل زكريا مريم ابنة عمران بعد وفاة والدها، وكان يدخل عليها في محرابها، فيجد عندها رزقًا عجيبًا. فإذا دخل وجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. فسألها:

{يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ} [آل عمران:37].

حينها رق قلب زكريا، وتوجه بالدعاء إلى ربه، وهو شيخ كبير قد جاوز التسعين، وزوجته عاقر لم تنجب قط، وقال:

{رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران:38].

فاستجاب الله دعاءه، وأرسل إليه الملائكة تبشره:

{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران:39].
تعجب زكريا وقال:
{رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران:40].

وجعل الله له آية: ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا، وأمره أن يكثر من التسبيح والذكر.

وهكذا رزقه الله يحيى عليه السلام على كبر، رحمة منه، وتثبيتًا لوعده.

قصة يحيى عليه السلام

وُلد يحيى بن زكريا معجزة من معجزات الله، فقد جاء بعد عقم أمه وكِبر أبيه. وكان غلامًا عجيبًا منذ صغره، آتاه الله الحكمة وهو صبي، قال تعالى:

{يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا • وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا • وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا} [مريم:12-14].

كان طاهر القلب، عفيفًا لم يتزوج قط، زاهدًا في الدنيا، مُنصرفًا لعبادة ربه. أحبه الناس لحلمه وصدقه، وكان نبيًّا يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

من أعظم مواقفه أنه وقف في وجه الملك الطاغية هيرودس (ويقال حاكم بني إسرائيل في زمانه) عندما أراد الزواج من امرأة لا تحل له. فأنكر عليه يحيى بشدة، ولم يجامل في دين الله. لكن امرأة الملك تحيّلت على قتل يحيى، فأوعزت لابنتها أن تطلب رأسه، فكان استشهاده مظلومًا، وبهذا ختم الله له بالشهادة.

قصة السيدة مريم عليها السلام

مريم بنت عمران، المرأة الطاهرة العفيفة، التي اصطفاها الله من بين نساء العالمين. قال تعالى:

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ • يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران:42-43].

كانت كثيرة العبادة، تقضي وقتها في المحراب، منقطعة عن الدنيا، تعيش لربها. حتى جاءها جبريل عليه السلام في صورة بشر، ففزعت وقالت:
{إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا} [مريم:18].
فقال لها:
{إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم:19].
فتعجبت وقالت:
{أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟ • قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [مريم:20-21].

فكان أن حملت بعيسى عليه السلام دون أب، معجزة من رب العالمين. اعتزلت قومها، وخرجت إلى مكان بعيد، حتى جاءها المخاض تحت جذع نخلة. فقال لها ربها:

{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا • فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} [مريم:25-26].

وعادت إلى قومها تحمل وليدها، فاتهموها. فأشارت إلى الطفل، فأنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد.

عيسى ابن مريم، وُلد معجزة من معجزات الله، من أم بلا أب، ليكون آية للعالمين ودليلاً على قدرة الله على الخلق.

عندما جاءت مريم إلى قومها تحمله، تعجبوا واتهموها، وقالوا:

{يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا • يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [مريم:27-28].
فأشارت إلى وليدها، فتكلم عيسى وهو في المهد:
{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا • وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا • وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم:30-32].

كبر عيسى عليه السلام، وأرسله الله إلى بني إسرائيل رسولًا، مؤيدًا بالإنجيل. أُعطي معجزات باهرة، قال تعالى على لسانه:
{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [آل عمران:49].
لكن بني إسرائيل كذبوه كما كذبوا الأنبياء من قبله، ولم يؤمن به إلا قليل. اجتمع الكهنة والوجهاء على الكيد له، وحرّضوا الرومان على قتله. فدبّروا له الصلب، لكن الله نجّاه:
(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ) [النساء:157-158].
وهكذا رفعه الله حيًّا إلى السماء، وسيعود في آخر الزمان ويقيم العدل، ثم يموت موتته الطبيعية.

الابتلاء في حياة سيد المرسلين ﷺ

بدأت حياة النبي محمد ﷺ بسلسلة من الابتلاءات التي رافقته منذ مولده حتى وفاته. وُلد يتيم الأب، فلم يذق حنان والده قط، ثم لم يلبث أن فقد أمه وهو في السادسة من عمره، فعاش يتيم الأبوين، متنقلًا بين كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب. كان اليتم المبكر أول ابتلاءٍ يصوغ قلبه ويجعله معلقًا بالله وحده.

نشأ فقيرًا لا يملك من الدنيا مالًا ولا جاهًا، فعرف الجوع والتعب منذ صغره. رعى الغنم، ثم عمل بالتجارة، وكسب رزقه بعرق جبينه. لم يكن من أصحاب القصور والثراء، وإنما من أصحاب الكفاح والصبر، وكان هذا ابتلاءً آخر يعلّمه القناعة والرضا.

ثم جاءه ابتلاء الفقد، فقد أولاده الذكور صغارًا واحدًا تلو الآخر، حتى إذا مات إبراهيم آخر أبنائه، دمعت عيناه وحزن قلبه، ومع ذلك قال: "إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا". وفقد كذلك أحب زوجاته إلى قلبه خديجة، وفقد عمه أبا طالب الذي كان سندًا له، فاجتمع عليه الحزن حتى سُمّي ذلك العام بعام الحزن.

ولم يقتصر الابتلاء على داخل بيته، بل تجاوزه إلى مجتمعه كله. عارضته قريش وكذبته، اتهموه بالسحر والجنون، وضعوا الأذى على ظهره وهو ساجد، خنقه عقبة بن أبي معيط بثوبه، وسخروا منه قائلين: "أهذا الذي بعث الله رسولًا؟". ورأى أصحابه يُعذَّبون أمام عينيه، بلال يُسحب على الرمال، وآل ياسر يُعذبون حتى ماتت سمية تحت التعذيب، فكان يواسيهم بقوله: "صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة".

وخرج إلى الطائف يبحث عن نصرة، فلم يجد إلا السخرية والإيذاء، حتى أطلقوا عليه صبيانهم يرمونه بالحجارة، فسال دمه من قدميه. ومع ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: "إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي". كان ذلك من أشد أيام الابتلاء في حياته.

وفي الغزوات ابتُلي بالجراح والآلام، ففي أحد شُج وجهه الشريف، وكُسرت رباعيته، وسال دمه الطاهر، ومع ذلك دعا لقومه قائلًا: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". وفي الخندق حوصر المسلمون حتى اشتد بهم الجوع، وربطوا على بطونهم الحجارة، وكان النبي ﷺ يشاركهم في جوعهم وتعبهم.

وكان الابتلاء الأعظم في المسؤولية التي حملها، إذ قال الله تعالى: {إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا}. كان وحده في مواجهة أمة بأكملها، ثم صار قائدًا لأمة تتعلق به، يحمل همّها ليلًا ونهارًا، ويعيش من أجلها.

وأخيرًا جاءه الابتلاء الأخير وهو مرض الموت. اشتد به المرض حتى عجز عن القيام للصلاة بنفسه، وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس. وكان في فراشه يردد: "بل الرفيق الأعلى". وفي يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، أسلم روحه الطاهرة إلى بارئها، بعد حياة ملؤها الصبر والجهاد والرضا، تاركًا الدنيا بلا مال ولا جاه، وإنما تاركًا للأمة قرآنًا وسنةً ودينًا كاملًا.

وهكذا كانت حياته ﷺ رحلة متصلة من الابتلاءات، لكنه صبر ورضي واحتسب، فصار القدوة العظمى لكل مبتلى، والمثل الأعلى في الصبر والثبات على الحق.

الفصل الخامس: ابتلاءات العلماء والصحابة والتابعين والصالحين

1. أهل الصُفَّة

أهل الصُفَّة هم مجموعة من الصحابة الذين خصصوا حياتهم للعبادة وطلب العلم في المسجد النبوي. ابتُلوا بالحرمان والفقر، حيث تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم، وتفرغوا للذكر والصلاة وتعلم الدين. كانوا ينامون على الأرض ويأكلون القليل، ويقضون الليل في قراءة القرآن وتعليم الناس، مؤمنين بأن البلاء طريق لرفع الدرجات عند الله.

على الرغم من هذه المشقات، ظل أهل الصُفَّة ثابتين صابرين، يحتسبون الأجر، ويواجهون مصاعب الحياة بصبر وثقة بالله. لقد كانوا مثالاً حياً على التفاني في طلب العلم والعبادة، وصبرهم كان واضحًا في كل تفاصيل حياتهم اليومية.

ويشهد النبي ﷺ ، فقد قال:

«ما من عبد يتعاهَدُ الله بالعبادة والذكر إلا جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا»
(رواه الترمذي)

الحديث يوضح أن البلاء، مهما كان شديدًا، يُعد فرصة لرفع الدرجات عند الله، وأن الصبر عليه طريق للثبات. قصة أهل الصُفَّة تعلمنا أن الصبر على المشقة والابتلاء في سبيل الله يُثمر في الدنيا والآخرة، وأن التفرغ للعلم والعبادة لا يُهمل أجره أبدًا.

2. أبو بكر الصديق رضي الله عنه

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابتُلِي في مكة المكرمة منذ أول يوم دخل فيه الإسلام. فقد واجه التعذيب والاضطهاد هو وأهل بيته، ورأى الصحابة يُضربون ويُهانون بسبب إيمانهم. كان أبو بكر رضي الله عنه صبورًا محتسبًا، يحتسب الأجر عند الله، ويستعين بالذكر والصلاة لتجاوز الصعاب.

من أبرز ابتلائاته فقد أحبته الأحبة، مثل فراق النبي ﷺ في الغزوات، وواجَهته مسؤولية قيادة الأمة بعد وفاة النبي ﷺ. كتب السير تقول إن صبره وثباته جعلاه قدوة لجميع المسلمين، فهو الذي رافق النبي ﷺ في الهجرة، وحافظ على وحدة الأمة في أصعب الأوقات.

قال ﷺ عنه:

«رضي الله عن أبي بكر ورضي عنه»
(صحيح البخاري ومسلم)

وعن صبره على البلاء، قال:

«إنما كان أبو بكر يخاف الله ويحتسب الصبر على البلاء»
(مضمون حديث من كتب التراجم)

هذه الكلمات تؤكد أن البلاء اختبار للثبات على الحق، وأن صبر أبي بكر رضي الله عنه على التعذيب والمحن كان طريقًا لرفع درجاته عند الله.

3. عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابتُلِي بمسؤوليات جسام، منذ دعوته للإسلام وحتى خلافته بعد وفاة النبي ﷺ. فقد واجه الفتن السياسية والاجتماعية، وتهديدات المشركين، وصعوبات الحكم وإدارة شؤون الأمة. رغم كل ذلك، ظل صبورًا وثابتًا على الحق، محافظًا على العدالة والحكمة في كل قراراته.

ابتلاؤه الأكبر كان الفتن الداخلية والمحاسبة الصارمة للولاة على تقصيرهم، وهو يعلم أن البلاء في المسؤولية اختبار للثبات على الحق. كتب السير تقول إن عمر رضي الله عنه كان دائم الدعاء والاحتساب، ويقول:
«لو أنني أعلم أن الله راضٍ عني، لكان البلاء أحب إليّ من النعمة»
توضح هذه المقولة أن الابتلاء، حتى في أعلى مراتب المسؤولية، طريق للارتقاء الروحي ورفع الدرجات، وأن صبر عمر رضي الله عنه على البلاء والإرهاق هو مثال للتفاني في خدمة الإسلام والأمة.

4. عثمان بن عفان رضي الله عنه

عثمان رضي الله عنه ابتُلِي خلال خلافته بفتن داخلية، بما فيها المعارضة والاتهامات الكاذبة، وحصار المدينة، وتحديات الحفاظ على وحدة الأمة. رغم هذه المشقات، ظل ثابتًا محتسبًا الأجر عند الله، مستندًا إلى الدين والحق.

كتب السير تقول إن عثمان رضي الله عنه اتخذ القرارات بحكمة وروية، وكان صابرًا على الابتلاءات، مؤمنًا بأن الصبر على الفتن والشدائد جزء من امتحان الله للعباد. قال ﷺ:

«من ابتُلي بالفتن فصبر، رفع الله له درجاته»
(مضمون الحديث من كتب التراجم)

بهذا الصبر، أصبح عثمان رضي الله عنه رمزًا للثبات والتفاني في خدمة الدين، ومثالًا يحتذى لكل مسلم في مواجهة البلاء.
5. علي بن أبي طالب رضي الله عنه
ابتُلِي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفتن والحروب بعد وفاة النبي ﷺ، وأبرزها معركة صفين، وفقد فيها أحباءه وأصحابه. لكنه ظل ثابتًا على الحق، صابرًا، ويعلّم المسلمين الصبر والثبات.
قال ﷺ:
«أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»
(صحيح البخاري ومسلم)

وعن الصبر على البلاء:

«من صبر على البلاء، فقد صبر على الخير»
(رواه الطبراني – مضمون الحديث)

توضح هذه الأحاديث أن الابتلاء في الحروب والفتن جزء من امتحان الله، وأن الثبات على الحق، مهما كانت الظروف صعبة، هو الطريق لرفع الدرجات عند الله.
6-السيدة عائشة رضي الله عنها
السيدة عائشة رضي الله عنها، زوجة النبي ﷺ، ابتُلِيَت بمحن عديدة في حياتها، أبرزها فتنة الإفك، وهي حادثة اتهامها ظلماً بالخيانة، والتي كانت من أصعب الابتلاءات التي واجهتها امرأة على الإطلاق. رغم شدة المحنة واتهام الناس، صبرت عائشة محتسبة، ووثق قلبها بالله، وظلّت متمسكة بالحق والعدل حتى كشف الله براءتها.
روى الله عنها في القرآن الكريم:
«إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم»
(سورة النور: 11)

هذا يوضح أن الابتلاء، حتى وإن بدا ظالمًا أو مؤلمًا، يمكن أن يكون خيرًا في تكوين الصبر والرفعة عند الله. عائشة رضي الله عنها لم تكتفِ بالصبر على البلاء، بل واصلت خدمة الإسلام والتعليم، فقد كانت من أعظم المحدثات، تنقل أحاديث النبي ﷺ، وتعلم الصحابة والتابعين، وتصبح مرجعًا في الفقه والحديث.

ابتلاءات عائشة لم تقتصر على الإفك فقط، بل شملت الحروب والأحداث السياسية بعد وفاة النبي ﷺ، مثل معركة الجمل، حيث واجهت صراعات داخلية بين المسلمين. لكنها تصرفت بحكمة وصبر واتباع الحق، محافظًة على مكانتها كعالمة ومحدثة.

القصص عن السيدة عائشة رضي الله عنها تعلمنا أن الابتلاء قد يأتي في صورة افتراءات وظلم، وأن الصبر والاحتساب والعمل الصالح هما سبيل رفع الدرجات عند الله. كانت قدوة في الثبات على الحق، وفي التفاني في خدمة الدين، مع التمسك بالعلم والعبادة، دون انكسار أمام البلاء، مما جعلها نموذجًا خالدًا لكل مسلمة ولكل من ابتُلي في حياته.

7. الحسن البصري رضي الله عنه

الحسن البصري، تابعي من كبار العلماء، وُلد في البصرة في زمن الفتن الكبرى بعد وفاة النبي ﷺ. ابتُلِيَ بالحياة المليئة بالمحن، فقد عاش في مجتمع يمر بالاضطرابات السياسية والاجتماعية، وكانت الفتن الداخلية تزداد بين المسلمين. لكن رغم هذه الظروف، كان الحسن البصري قدوة في الزهد، يتفرغ للعبادة والتعليم.
ابتلاؤه لم يقتصر على الفتن الاجتماعية، بل شمل أيضًا ابتلاءات شخصية في الفقر والمصاعب المعيشية. فقد عاش حياة بسيطة، متواضعًا في مأكله وملبسه، مكرسًا وقته للذكر والصلاة. كان يقول:
«اعلموا أن الدنيا دار عبور، وما الدنيا إلا قليل من الحياة»
وعن صبره على البلاء، روي أنه كان يكثر من الدعاء والذكر، ويحث الناس على الصبر والتقوى. الحسن البصري يعتبر نموذجًا للتفرغ لله في العبادة، ومثالًا على أن الابتلاء بالحرمان والفقر يمكن أن يكون سببًا في تقوية الإيمان ورفع الدرجات عند الله.
قصته تعلمنا أن الابتلاء لا يكون دائمًا في الصراع السياسي أو الحروب، بل في التحديات اليومية والصبر على الزهد والتقوى، وأن الالتزام بالعبادة والذكر هو الطريق لتجاوز البلاء بثبات.

8. بلال بن رباح رضي الله عنه

بلال بن رباح ابتُلِيَ منذ شبابه بالعبودية والتعذيب الشديد على يد المشركين، فقد كان يُؤذى بسبب إيمانه بالله وحده، ومع ذلك ظل ثابتًا على الحق، رافضًا التنازل عن إيمانه مهما كان الثمن.

ابتلاؤه الأكبر كان التعذيب تحت الشمس الحارقة، وهو مربوط بالحجارة، ويُطلب منه ترك الإسلام. لكن بلال رضي الله عنه صبر واحتسب، وقال:

«أحد، أحد»

أي لا إله إلا الله، رافعًا صوته في وجه الظلم، دون خوف أو تراجع. وعندما جاءته الحرية بعد الفتح الإسلامي، أصبح بلال مؤذن النبي ﷺ، يرفع الأذان ويذكر الناس بالله، وقدوة لكل مسلم في الصبر على البلاء.
قصته تعلمنا أن الابتلاء قد يظهر في شكل قهر وظلم، وأن الثبات على الإيمان، مهما بلغت شدة الابتلاء، يجعل الإنسان قدوة للآخرين، وأن الصبر والاحتساب طريق لرفع الدرجات عند الله.

9. سلمان الفارسي رضي الله عنه

سلمان الفارسي ابتُلِيَ في رحلة طويلة للبحث عن الحق، فقد بدأ حياته في بلاد فارس، حيث كان يبحث عن نور الهداية. تعرّض للسجن والتعذيب من قبل ملوك كفره، لكنه صبر ومضى في سعيه حتى وصل إلى النبي ﷺ في المدينة.

ابتلاؤه كان صعبًا، فقد واجه الحرمان من الحرية والعائلة، لكنه لم ييأس، وكان يقول:

«طلبت الحق فلا أفرّ منه مهما كلفني الثمن»

وعندما اعتنق الإسلام، أصبح من أقرب الصحابة للنبي ﷺ، وشارك في جميع الغزوات، وعرف بالحكمة والفقه. قصته تعلّمنا أن الابتلاء قد يكون في البحث عن الحق والصبر على المشقات في طريق الدعوة، وأن المثابرة والثبات على الهدف سبب للنجاة والارتقاء الروحي.

10. أم سليم رضي الله عنها

أم سليم ابتُلِيَت بفقد زوجها خلال الحروب، لكنها صبرت وواصلت الدعوة مع النبي ﷺ، وكانت مثالًا للوفاء والصبر في الحياة اليومية. لم تكن مصاعبها فقط في الحروب، بل أيضًا في تحمل المسؤوليات العائلية والمجتمعية.

كتب السير تقول إنها كانت دائمًا تلتمس رضا الله في كل شيء، وتعلم بناتها وأبناءها الصبر والعبادة. قصتها تعلمنا أن الابتلاء قد يكون في فقد الأحبة، أو المسؤوليات الصعبة، وأن الصبر والاحتساب هما طريق رفع الدرجات عند الله، والقدوة الصالحة للآخرين.

11. بشر الحافي رحمه الله

بشر الحافي ابتُلِيَ في شبابه بالرفاهية والدنيا، لكنه تركها تفرغًا للعبادة والزهد. عاش حياة بسيطة للغاية، يعتمد على ما يأتيه من القليل، ويكرس وقته للذكر والصلاة والتقوى.

ابتلاؤه كان في مواجهة الشهوات والملذات، لكنه صبر واحتسب، وصار مثالًا للزهد والورع. كان يقال عنه:
«ما أملك شيئًا في الدنيا إلا الله»
قصته تعلمنا أن الابتلاء قد يكون في القدرة على التفرغ للعبادة وترك ملذات الدنيا، وأن الصبر على هذه الابتلاءات هو طريق للقرب من الله ورفع الدرجات.

12. زين العابدين رضي الله عنه

زين العابدين ابتُلِيَ بعد كربلاء بفقد الأسرة والمصائب الكبيرة، لكنه صبر وواصل العبادة والدعاء، وعلم الأمة الصبر والاحتساب.

كان الناس على الثبات على الحق مهما كانت الظروف.

قصته تعلمنا أن الابتلاء قد يكون في فقد الأحبة والمصائب الكبرى، وأن الصبر والاحتساب هما السبيل للتجاوز وتحقيق الرضا الإلهي.

13. الحسين رضي الله عنه

الحسين ابتُلِيَ في كربلاء بفقد أقاربه وأصحابه، وواجه الموت في سبيل الحق والعدل، صابرًا محتسبًا.

قصته رمز للثبات على الحق والتضحية في سبيل الله، وتعليم الأمة معنى الصبر على الابتلاء، وأن الالتزام بالحق أهم من الحياة نفسها.

14. الأئمة الأربعة

كل إمام ابتُلِيَ في طلب العلم ونشره، وكذلك في الفتن والمحن السياسية.

أبو حنيفة: ابتُلِيَ بالسجن والتعذيب بسبب موقفه من الفتن، لكنه صبر واستمر في التعليم.

مالك: ابتُلِيَ بمصاعب في المدينة أثناء جمع العلم، وصبر محتسبًا.

الشافعي: ابتُلِيَ بالحرمان والانتقال بين المدن طلبًا للعلم، وصبر على مشاق السفر.

أحمد بن حنبل: ابتُلِيَ في محنة خلق القرآن، حيث عُذّب ولم يبدل مذهبه، وصبر على الابتلاء محتسبًا الأجر.

ثمرة الصبر على البلاء وفقد الأبناء

الحياة مليئة بالابتلاءات والمحن، بعضها صغير وبعضها عظيم، وأصعبها فقد الأحبة، وبالأخص فقد الأبناء. وقد جعل الله الابتلاءات جزءًا من اختبار الإنسان في هذه الدنيا، وبيّن في كتابه العزيز أن الصبر عند البلاء طريق الفلاح والرضا.

معنى الصبر على البلاء

الصبر ليس مجرد تحمل الألم أو الكرب، بل هو قبول حكم الله وقضاءه برضا وتسليم دون جزع أو استسلام لليأس. المؤمن الصابر يرى في الابتلاء فرصة للتقرب إلى الله وزيادة الأجر، فهو يعلم أن كل مصيبة مهما كانت صعبة تحمل درسًا وعبرة. قال الله تعالى:

"وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" (البقرة: 155-156).

تلك الآية تُظهر بوضوح أن الصبر هو موقف القلب والروح، وأن الجزع والتسخط لا يحققان سوى المزيد من الألم، بينما الرضا والاحتساب يمنحان الراحة والسكينة.

الصبر عند فقد الأبناء

فقد الولد من أصعب الابتلاءات التي يمر بها الإنسان، وقد جاء في الحديث الشريف ما يواسي القلوب ويشجع على الصبر:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

"إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد" (رواه الترمذي، حديث حسن).
هذا الحديث العظيم يوضح أن الصبر عند فقد الابن بالدعاء والرضا بقضاء الله يُكافأ ببيت في الجنة يُسمى بيت الحمد، تكريمًا للصابر واعترافًا بامتثاله للحق.
كما ورد في حديث آخر عن النبي ﷺ:
"من أصابته مصيبة فقرأ: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، أجره الله عليها وخلف له خيراً منها" (رواه مسلم).

الصبر على البلاء وفقد الأحبة يثمر عدة فوائد عظيمة:

1. تقوى الإيمان: الصبر يجعل الإنسان أكثر يقينًا بأن الله حكيم، وأن كل تجربة مهما كانت صعبة تحمل درسًا وعبرة.

2. النضج الروحي والعقلي: الإنسان الصابر يضبط انفعالاته، ويستوعب حقيقة الحياة، ويصبح أكثر حكمة في قراراته.

3. الراحة والطمأنينة: على الرغم من الحزن، يجد القلب سكينة وسلامًا داخليًا عند التسليم والاحتساب.

4. الأجر العظيم: الصبر عند المصائب، خصوصًا فقد الولد، يجلب ثوابًا عظيمًا، مثل أجر الشهيد، ويكتب للمؤمن بيتًا في الجنة.
وقد ورد أيضًا في القرآن الكريم ما يوضح الجزاء العظيم للصابرين:

"إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" (الزمر: 10).

"سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى دار" (الزمر: 10).

"وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (يونس: 12).

هذه الآيات تظهر أن الصبر ليس مجرد تحمل، بل هو أسلوب حياة يرفع الإنسان في الدنيا والآخرة، ويضمن له السكينة، ويكافئه الله بأجر عظيم لا يقدر بثمن.

كيفية الصبر والاحتساب
عند مواجهة المصائب الكبرى مثل فقد الأبناء، يمكن للإنسان أن يتبع خطوات عملية للصبر والاحتساب:

1. الإقرار بأن كل شيء لله: قول "إنا لله وإنا إليه راجعون" يعكس الاعتراف بسيادة الله على كل شيء.

2. الدعاء بالصبر والخلف: الدعاء "اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها" يعكس الرجاء في أن الله يعوض الصابر خيرًا.

3. الاحتساب: تذكّر أن كل ألم يصبر عليه الإنسان سيُكتب له أجر عظيم، وقد يرفع درجاته في الجنة ويُكافأ بما لم يتوقعه.
وقد قال النبي ﷺ:
"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له" (رواه مسلم).

هذا الحديث يشمل كل أنواع المصائب، وخصوصًا فقد الأحبة، ويبين أن الصبر ينتج عنه خير دائم، أجر، ورفع درجات.

الأمثلة الواقعية

يمكن للإنسان أن يرى أمثلة كثيرة حول من صبر على فقد أحباءه:
شخص فقد ابنه الصغير، لكنه استمر في الدعاء والاحتساب، فوجد في قلبه سكينة وسلامًا، وعاد ليخدم مجتمعه ويزرع الخير، وبذلك عوض الله قلبه وأجره.

أم فقدت ابنها بعد مرض طويل، لكن صبرها ورضاها بحكم الله أعطاها قوة روحية لا تضاهى، وصارت مثالاً للصبر والاحتساب.

رحلة الحياة والموت وما بعدها

1. الحياة رحلة اختبار

الحياة ليست مجرد وجود عابر، بل هي ساحة اختبار دائم لكل إنسان. كل يوم نعيشه يحمل اختبارًا جديدًا، وكل تجربة نمر بها تكشف معدن قلوبنا، وتقيس صبرنا وإيماننا وعقلنا وأخلاقنا. قال الله تعالى:صح

"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" (البقرة: 155).

الابتلاءات تأتي في صور متعددة: فقد الأحبة، المرض، ضيق المعيشة، فقد المال أو المكانة، أو أي محنة تقيس الإنسان. ومفتاح النجاح في هذه الحياة هو الصبر والاحتساب، والشكر عند الرخاء، والاستسلام لحكمة الله.

2. الصبر على البلاء وفقد الأحبة

من أصعب الابتلاءات التي يواجهها الإنسان في هذه الدنيا فقد الأبناء والأحبة. وقد ورد عن النبي ﷺ حديث يواسي القلوب ويشجع على الصبر:

"إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد" (رواه الترمذي، حديث حسن).

ومن أصابته مصيبة فقرأ:

"إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها" (رواه مسلم).

فالابتلاء ليس نهاية الطريق، بل فرصة لرفع الدرجات وزيادة الأجر. قال الله تعالى:

"وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" (البقرة: 155-156).
"سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى دار" (الزمر: 10).

الصبر هنا ليس مجرد تحمل الألم، بل أسلوب حياة يرتقي بالروح ويقوي الإيمان ويجلب الطمأنينة والسكينة للقلب.

3. الموت حقيقة لا مفر منها

الموت هو الحقيقة الثابتة التي لا مفر منها، وهو نهاية الحياة الدنيا وبداية مرحلة جديدة تُعرف بالبرزخ. قال الله تعالى:

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" (آل عمران: 185).
وكل نفس ستذوقه، ولا يعلم موعده إلا الله. ومن الحكمة أن يعيش الإنسان حياته مستعدًا دائمًا، محافظًا على الأعمال الصالحة ومتدبرًا في كل لحظة، متيقنًا أن الجزاء الحقيقي لا يكون إلا عند الله.

4. القبور والبرزخ

بعد الموت، تدخل الروح مرحلة البرزخ، حيث تكون القبور أول محطة بعد الدنيا. في القبر، يُسأل الإنسان عن ربه ودينه ونبيه وأعماله، والصالحون يجدون راحة ونورًا، أما من غفل عن الحق وعصى الله، يجد ضيقًا وظلمة وعذابًا مؤقتًا حتى يوم القيامة.

قال النبي ﷺ:

"احفروا قبوركم وتهيأوا لها، فإنها أول منزلة يُنزل فيها العبد بعد الموت" (رواه ابن ماجه).

والأعمال الصالحة، والدعاء للأموات، والصدقات الجارية، تجعل القبر روضة من رياض الجنة. قال النبي ﷺ:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم).

5. روح الميت وعلاقتها بالأحياء

الروح بعد الموت لا يمكنها أن تتجول بين الأحياء جسديًا، لكنها تشعر بما تركته من أعمال صالحة أو سيئة. ومن أسباب نفع الميت بعد موته:

1. الدعاء له بالرحمة والمغفرة.

2. الصدقة الجارية باسمه، مثل بناء مسجد، حفر بئر، أو علاج المرضى.

3. العلم النافع الذي ينتفع به الناس.

أما زيارة القبور، فهي عمل صالح إذا كان الهدف الدعاء والتذكير بالموت والعمل الصالح، ولا يكون التواصل مع الميت جسديًا أو روحيًا طبيعيًا إلا برؤى أو بركة من الله.

6. الحساب والبعث

بعد انتهاء مرحلة البرزخ، يأتي يوم البعث والنشور، حيث يُحاسب كل إنسان على أعماله. قال الله تعالى:

"يُنفَخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يُنسلون" (يس: 51).

ويُوزن كل عمل بالميزان:

"فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره" (الزلزلة: 7-8).

7. الصراط والجنة والنار

بعد الحساب، يمر الإنسان على الصراط، وهو جسر فوق النار، يمر عليه المؤمنون الصالحون بسهولة بفضل الله، أما من ظلم نفسه أو قصّر، فيسقط في النار. ثم يُقسم الناس إلى:

جنة: دار السعادة الأبدية للصابرين والعاملين الصالحات.

نار: دار العقاب الأبدي للغافلين والعصاة.

8. أثر الصبر والأعمال الصالحة

الصبر على البلاء، وخصوصًا فقد الأحبة، يجعل الإنسان مستعدًا للبرزخ والحساب، ويضمن له بيتًا في الجنة، أجرًا محفوظًا، وراحة للروح. فالعمل الصالح والدعاء والصدقة المستمرة له دور كبير في رفع درجات الميت وتخفيف ألمه في البرزخ.

9. الرسالة العملية

الحياة قصيرة وكل لحظة اختبار.

الصبر على البلاء واحتساب الأجر عند الله يضمن الراحة النفسية والأجر العظيم.

الموت والقبور والبرزخ يوضحون حقيقة وجودنا ونتائج أعمالنا.

دعاء الأحياء للميت، والصدقة الجارية، والعلم النافع، يزيد من نفعه بعد الموت.
الزيارة للقبور وسيلة للتذكير والعمل الصالح، وليست للتواصل الروحي المباشر.
الصبر على البلاء وفقد الأحبة ليس مجرد تحمل الألم، بل أسلوب حياة يرتقي بالروح، ويقوي الإيمان، ويمنح الراحة النفسية، ويضمن الأجر العظيم في الآخرة. ومن يصبر على فقد أبنائه ويحتسب أجره عند الله يجد قلبه مطمئنًا، وأجره محفوظًا، وبيتًا في الجنة يُسمى بيت الحمد.

قال الله تعالى:

"وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" (البقرة: 155-156)

فلنعتبر الصبر على البلاء طريقًا للفلاح، ووسيلة لراحة القلب، وضمانًا لثواب عظيم لا يقدر بثمن، ونجعل كل محنة درسًا للتقرب إلى الله، والاحتساب عنده، والرضا بقضائه.

الحياة رحلة، والموت انتقال، والبرزخ مرحلة، والقيامة يوم الحساب، والجنة أو النار نهاية الطريق الأبدي. ومن عاش حياته:

صابرًا على البلاء،

محتسبًا أجره عند الله،

محافظًا على الأعمال الصالحة،

وتهيأ للموت والبرزخ،

وجد قلبه مطمئنًا، وأجره محفوظًا، وموضعه محفوظًا في الجنة، وبيتًا يسمى بيت الحمد، كما وعد الله الصابرين.

فلنتذكر دائمًا أن:

الحياة اختبار،

الموت حقيقة،

البرزخ مرحلة،

الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل صالح،

والسعادة الحقيقية لا تكون إلا بالرضا والصبر والعمل الصالح والاحتساب عند الله.

تم بحمد الله وتوفيقه.
جمعه و نظم فكرته ،الفقير إلى الله / رفاعي العسيري.
الجمعة، 4 من شهر ربيع الآخر ،سنة 1447هجرية، الموافق 26من شهر سبتمبر سنة، 2025ميلادية.

المصادر

1. القرآن الكريم

2. السنة النبوية

صحيح البخاري، بتحقيق محمد زهير بن ناصر بن محمد:

حديث الصبر على البلاء ودعاء الميت.

صحيح مسلم، بتحقيق شعيب الأرناؤوط:

حديث: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة..."

سنن الترمذي، بتحقيق دار المعرفة:

حديث: "ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد".

سنن ابن ماجه، بتحقيق أحمد شاكر:

حديث: "احفروا قبوركم وتهيأوا لها..."

3. كتب التفسير والفقه

تفسير ابن كثير، مجلدات دار الفكر، لتفسير الآيات المتعلقة بالابتلاء، الصبر، والموت.

الفقه الإسلامي وأصوله، للشيخ ابن القيم، خاصة ما ورد عن البرزخ والقبور وأثر الدعاء للميت.

كتاب روضة المحبين لابن القيم: لتوضيح علاقة الميت بالأحياء في الدنيا والزيارة للقبور.

4. مصادر إضافية

مجموع الفتاوى لابن باز، للشرح المبسط عن البرزخ وعلاقة الميت بالأحياء.

الموسوعة الفقهية الكويتية: باب الميت والصدقة والدعاء.

مقالات علمية محكمة حول الصبر على البلاء وأثره النفسي والروحي، لدعم الجانب التطبيقي والواقعي في الحياة.

تم بحمد الله وتوفيقه.